

صبيح فرج زين الدين

مع الحيات

٣٦

اقرأ

تصدرها دار المعارف
بمعاونة الدكتور طه حسين بك واطون الجليل بك
وعباس محمود اليقطين وفؤاد صروف

٣٦ — نوفمبر سنة ١٩٤٥



جميع الحقوق محفوظة
لدار المعارف

لدغة

في قرية من قرى الصعيد المتواضعة نشأ رفاعه ودرج على ما درج عليه أهل الريف في جو تشيع فيه أراحيف المشعوذين بالجن والحيات. فكان يسمع طرائف وأحاديث لا تخلو من الخرافة والمبالغة عن الثعابين وحياتها والفاعيين وعلاقتهم بها . وكانت هذه القصص والأراجيف تثير الخوف في نفسه أما الثعابين لذاتها فلم تكن تستغره لأن صغار الأطفال كصغار القردة لا تدرك من أمرها قليلاً ولا كثيراً واقد ترى الثعابين زاحفة فلا تخشى أن تقترب منها وتلمسها وتلعب بها . وعلمت هذه القصص بذابكرته فلما بعث به نوه إلى المدرسة واتسعت مداركه رأى في دراسة هذه الزواحف موضوعاً طريماً ونوعاً جديداً من البحث وراد أن يرضى في نفسه غريزة حب الاستطلاع ويعرف ما خفي عليه من أمر هذه المخلوقات الغريبة . فعكف على دراستها وعرف الكثير من خصائصها ومواطنها .

وكان فيما علم أن « العمارنة »^(١) أغنى مناطق مصر بالحيات وأنواعها فدفعته الرغبة إلى جولة في آثار تلك البقعة الخالدة التي كانت تسمى « أخت أتون » والتي كانت يوما ما مقر الملك الصالح « أخناتون » والتي أشرقت منها لأول مرة في تاريخ الأديان شمس التوحيد وتلأل نور ذلك الدين الجديد الذي لم يكن للعالم عهد به قبل أن يهتدى إليه أخناتون .

رحل رفاعة ومعه عمه حسان وابنة عمه الحسنة « وردة » التي كانت على شيء غير قليل من الثقافة وسعة الإدراك وهبطوا ذلك الوادي بعد رحلة شاقة وضربوا خيامهم فوق مرتفع من الأرض يطل على النيل ولكن الشوق المتأجج في نفس الفتى إلى شهود الآثار أنساه وعشه السفر وطفق يجوس خلال تلك الأطلال وحفز نشاط الشباب ابنة عمه إلى مرافقته ، أما عمه الشيخ فقد أثر الراحة في الخيام .

(١) العمارنة مدينة تقع على الضفة الشرقية للنيل وكانت عاصمة المملكة المصرية بعد طيبة وتنسب اسمها الحالي إلى قبيلة بني عمران أما « اسمها القديم فهو (أخت أتون) أى سماء الإله أتون ومؤسس هذه المدينة الملك أخناتون أى المبتهج بآتون وآتون هذا كان يرمز إليه يعرض الشمس مندلية منه أشعه توزعها أيدي بشرية .

سار الفتیان بین خرائب مقفرة ومغاور مظلمة يرتادان السهل والوعر من هضبة إلى تل ومن واحة صغيرة إلى صحراء مترامية . لا يحسان نصباً ولا يذكّران تبعاً ورفاعة يشرح لرفيقتة سر تلك الآثار ويحدثها عن عمارها من الزواحف وأنها أصبحت مسارح حيات بعد أن كانت مناسك عبادة وميادين نخار .

وبعدلأى وقفا على واحة صغيرة وسط هذه البقعة الصحراوية ورأيا في عشبها الندى مهداً ليناً فألقيا بجسديهما عليه . وخلعت الفتاة عنها معطفها فبان عن قد أهيف لدن وساعد ناعم بض وامتزج هذا الجمال الفاتن بجمال الطبيعة الساحرة فأثار الشعور بالجمال في نفس رفاعة عاطفة كادت تغلبه على أمره وهم بأن يطبع قبلة على ساعد وردة لولا أن رأى منها غضبة ونفرة فتراجع حيران أسفاً على ما بدر منه وصمت فترة استرجع فيها نفسه ثم اعتذر لوردة عن هفوته وراح يزيل عنها روعها بمحديث عذب مسترسل عن موضوع الرحلة وتاريخ الأرض التي نزلوا بها فقال: إنها كانت في عهدها الغابر فسيحة الأرجاء عامرة بالهياكل الدينية والقصور والبساتين وقد وصفها أحد أمراء ذلك العهد بقوله .

(أخت أتون) بلدة جميلة هي سيدة المدن في بهاء الحفلات

وافرة الثراء تهدي إلى العبود آتون في وسطها الهدايا إذا جال
 البصر في أنحائها عجل الفرح إلى القلب، ولم لا يكون ذلك وهي مدينة
 رائعة زاهرة بخيل لرائها أنها جنة غناء عامرة بالناس، إذا أشرق
 عليها (آتون) نشر أشعته فتحتضن ابنه المحبوب الأزلى سليل
 (آتون) الذي وقف الأقاليم على من أجلسه على العرش وأرجع
 الأرض إلى ربه .

سكت رفاهه يستجمع أفكاره ثم استطرّد يقول : من يدري
 نخل هذه الربوع ، تشهد مهرجاناً كلدى شهادته يوم أن هبت
 تستقبل موكب أخذتون وهو راكب عجلة ومعه كرىمانه الأربع
 وكبار رجال دوائه فقبائلهم اقنوم عند معبد آتون بهتاف عظيم
 مرحبين مهللين ثم امتلاً المذبح العالي باتمرايين الغالية .

وقد اشترك جلالة الملك في الاحتفال وأنشدت زوجته أنشودة
 السلام إلى لمعبود آتون بصوت رحيم وهي قابضة بيديها الجملتين
 على آتين موسيقيتين وقد انبعثت من الهياكل نفثات حلوة سحجية
 تردد أنشودة الآله (آتون)

(ما أكثر مخلوقاتك المتنوعة -- منها سر مكفونون -- أيها
 الآلهة لأحد الذي لا شريك له في ذلك .

إشراقك وضاح في أفق السماء — يا أتون يا حى يا مبدىء
الحياة ، إذا تعاليت في الأفق الشرقى من السماء أفضت على الأرض
جمالك ؛ ذلك بأنك جميل عظيم منير في السموات العلايسطع نورك
على الأرض وعلى جميع مخلوقاتك .

أنت (أتون) ، أنت الذى ملكهم وجمعتهم على محبتك ،
أنت بعيد عن الأرض لكنك قريب منها بأشعتك . أنت متعال
لكن أثارك تتجلى فى وضوح النهار

سكنت الفتاة إلى هذا الحديث الشائق الخدش وهذا روعا
وهمت أن تبتدر فتاها بسؤال ولكن رفاة تابع حديثه قائلاً: من
يدرى ماذا كانت تخلف تلك المدينة الزاهرة لو لم تعصف بها
النوب إن عظمها فلم تمهلها أكثر من خمسين عاماً ثم أزانتها
صرير الليالى والجدود العواثر فأنت على أهلها وأحالت ديارهم
بلاقع خاوية ينبع فيها البوم وتسعى بين جنباتها الحيات فأصبحت
تضييق بها على سمعها فمنها ما اندس فى الرمل أو اختفى فى المغاور
ومنها ما تسلق الأشجار أو قفز فى الهواء إلى غير ذلك من
شتى الأنواع .

وما إن توقف رفاة عن الحديث حتى عادت اتمتة تسنه

لقد أفضت في الحديث عن تاريخ تلك البقعة وما فيها من عظمة وجلال ، وها أنت ترى ما آلت إليه فهل لك أن تحدثني عن ساكنيها الآن من الثعابين والحيات ولا أخالك إلا شغوفاً بها ؟ فراح من فوره يشرح لها أنواع الزواحف في هذه البقعة وطرق معيشتها ، وكنها لم تمهل ليم حديثه بل قاطعته في رفق ودلال قائلة . أعفد من هذا الشرح الآن وحدثني هل تتحاب الثعابين كما يتحذب غيرها من المخلوقات .

وهل لهذه العاطفة من أثر فيما تعلم عندها . فأجاب : أما عن ذلك فلم يهدني إتيه علمي ولم أشهده في تجاربي ولكني محدثك عن حادث واقع سمعته حياً وغراماً أوفسه ما تشائين من الأسماء وقع هذا الحادث لأحد القرويين في ضاحية من ضواحي مدينة « الكاب » فقد قتل ثعباناً ساماً وحمله إلى قريته واصطحب معه صديقاً إلى البيت وقال له « إننا سنمزح مع زوجتي مزاحاً قد لا يرضيها ولكننا سنضحك منه كثيراً فأسأع هذه الحية الميتة في قبعتي وأدعها في حجرة نومي وأطلب إليها إحضار البقعة بينما نشرب نحن شيئاً من النبيذ .

ودخل الرجلان البيت ودبر الزوج لزوجته ما أراد وجلس مع

صاحبه إلى مائدة الشراب يحترسان الخمر ثم نادى زوجته : **الحريرة**
 بقبعتي من الخدع . . فذهبت حيث أمرها ولكنها لم تعد وطالت
 غيبتها وطال انتظار الصاحبين حدوث المفاجأة وسماع صرخة
 الفرع فما ظفروا بشيء . ولما استبطأ المرأة ساورت الزوج الوسوس
 فهم من فوره إلى الخدع ولم يكذب بلج بابه حتى كاد يصق لرؤية
 زوجته جثة هامدة ووجد بجانبها وبجانب الحية الميتة ثعباناً لم يشك
 في أنه هو الذى لدغها . وذهبت المرأة المسكينة ضحية ذلك المزاح
 الثقيل . أما الثعبان فظاهر أنه أقتنى أثر القروى الذى قتل أثناءه
 ونفذ إلى الخدع من كوة صغيرة لينتقم لآثائه أو قولى خبيثته .

دمعت عين الفتاة لهول ما سمعت ووجعت قليلاً ثم عادت إلى
 نفسها وسأت رفاة قائلة هل لك أن تشرح لى أعراض التسمم
 بالحيات وهل سمها قاتل إلى هذا الحد كما حدث للقروية الخمسة
 فجابها الفتى : إن من الناس من يقضى عليه السم فى ساعات
 قليلة ومنهم من يمتد به الأجل بضعة أسابيع ومن الناس من يقع
 فى غيبوبة لا يفيق منها أبداً ومنهم من يموت وهو يعنى آلاماً
 مبرحة وقد ينجو الكثير منهم تبعاً لقوة مقاومة الكامنة فى أجسامهم .
 وهأنذا أتلو عليك مذكرات طبيب اسمه (هينزل) وهو أحد

العلماء المجاهدين الذين يضحون بأنفسهم في سبيل العلم ؛ فقد أحضر هذا الرجل أفعى شرسة كبيرة الحجم مضى عليها ثلاثة أيام لم تنفث سماً فأذن عا من إبهام يده اليمنى وتركها تعضه وفي هذه المذكرات الممتعة يقول الطبيب :

عظمتي اذنفتى فى الساعة الأولى بعد الظهر فأحدثت جروحاً عميقة مؤلمة . واهتزت جميع أعضاء جسمى رغم تظاهرى بالثبات ثم أخذ الأ لم يسرى فى إبهامى وانتقل إلى الكف ثم إلى الذراع وامتد حتى الأبط فأمرعت بربط الإبهام وجعلت أمتص السم من موضع اللدغة ولكننى لم أستعمل المشرط ولم أعقم الجرح لأننى لا أومن كثيراً بهذه الاحتياطات وشعرت عند الإصابة بتخدير فى أعضائى وأصابنى دوار فى رأسى وإغماء قصير أفقت منه بعد قليل . وفى الساعة الثانية بعد ظهر اليوم الأول عاودنى الإغماء وفى خلال هذه الفترة ظهر مكان اللدغة لون أزرق وتورم الإبهام وآلمنى وأخذت نوبات الإغماء تتكرر ولكن لا تمكث إلا بضع دقائق نظراً لمقاومتى إياها بقوة الإرادة .

وبين الساعة الثانية والثالثة عم الورم الذراع كله وصعب على تحريكه وأصبحت أسمع الأصوات ضعيفة وتعذر على فهمها وحاولت

فى جهد أن أسممها ولكن شغلتنى الآلام التى بدأت تظهر فى بطنى وقد أنتفخ .

وبعد الساعة الثالثة تقايات لأول مرة وأصابنى إسهال وتشنجات متقطعة فى أجزاء صغيرة من أعضاء البطن وأعضاء أخرى من الجسم ، واستمرت التشنجات فى المثانة وقهدت قواى لدرجة ثقل معها سمعى وشعرت بمطش شديد وسرت فى أعضاء جسمى موجة من البرودة الشديدة واحتقن الذراع واشتد ضغط البطن على أعضاء التنفس . وقد أخبرنى من كان معى أن منظرى قد تغير وتنكر وأصبح من الصعب التعرف على شخصى وقيل لى إننى كثيراً ما كنت أهذى ولكنى كنت مالكا لحوامى بين فترات الإغماء وكثيراً ما حاولت أن أقول شيئاً فتخوننى قواى .

وفى الساعة السابعة (أى بعد مضى ست ساعات من الحادث) زالت أعراض التشنج وألقى والإسهال وكذلك آلام البطن وتناولت جرعة من مستحلب (الأفيون) ففضيت ليلة هادئة غير أن آلام البطن عاودتنى فضايقنى ذلك قليلا .

وفى الساعة السابعة من صباح اليوم الثانى تضاعفت أورام الذراع حتى الأبط واستحال لون العضة أزرق قائماً وظهرت حولها

حلقة حمراء على امتداد الجانب الخلفى الذراع وامتد الاحتقان إلى الصدر وانتقل تدريجاً إلى الفخذ وارتفعت درجة الحرارة شيئاً قليلاً في الأعضاء المتورمة وتصبب العرق فانخفضت درجة الحرارة وكدت أتمتع براحة تامة لولا ما عانيت من متاعب البول وضعف النبض ولكنى لم أفقد شهيتى للطعام . وعند الظهر زال الدوار بعد أن تناوت شراباً ساخناً وزالت كذلك نوبات الإغماء ولكن آلام الذراع عادت واشتدت وزاد شعورى بالبرد وضعف النبض كثيراً غير أن شهيتى للطعام ظلت جيدة وقل شعورى بالعطش وخفت وطأة آلام البول .

وفي اليوم الثالث ضعفت حدة آلام الكتف والفخذ وجدار البطن واختفت تماماً متاعب البول ولكن الإعياء وجميع الأعراض الأخرى ظلت على شدتها .

وفي اليوم العاشر تلاشت جميع أورام الصدر وزالت جميع الأورام الأخرى في اليوم الثامن عشر . ويختتم الطبيب تقريره القيم بعد ستة أسابيع من تاريخ اللدغة بقوله : لقد خرجت من هذه التجربة القاسية بهزال شديد ولون شاحب لم أعف منها حتى

اليوم ، ولازمتني كذلك رعدة تتمشى في مفاصلى وظل ذراعى ضعيفاً لم يتم برؤه وأسمر مكان اللدغة .

وما أن أتى رفاة على آخر هذه المذكرات حتى صاحت وردة صيحة مختنقة وأشارت إلى ساعدها الأيمن إشارة هلع واضطراب آه لقد عضنى ثعبان . . فقام رفاعه يفتش عن الثعبان الآثم ويهرول من هنا إلى هنا وعيناه عالقتان بالأرض يتحسس آثار الأفعوان ثم صاح : لقد وجدتها . هذه آثاره وأكبر الظن أنه ثعبان سام فدعيتني أوسع قليلا من مكان اللدغة ثم امتص السم من ساعدك ولا خوف على من سريان السم فى دى قمى سليم من الجروح . . أسرعى . فليس فى الوقت فسحة تزيد على نصف الساعة أخشى بعدها من طغيان السم على جسمك . . هيا . . فبعد قليل سيشتد ألمك ويضيق نفسك . . عجلى بربك . . ثم ضم يده إلى جيبه فأخرج ساعته وأخذ يعد الدقائق والثواني منذراً تارة ومتوسلاً أخرى فلم تأبه لنذره ولم تستجب لتوسلاته قالت : إنى أوتر الموت وأرحب به على أن أدعك تمتص السم فتكون أنت الضحية . . ثم جعلت تئن وتأوه . .

واسترسل قائلاً : يا فتاتى الحبيبة . . لم يعد لنا غير ريع

ساعة فارحى نفسك وارحى أباك وارحىنى . . . ودعنى أبداً
باستعمال الشرط . .

فأشارت إليه متمنعة ونحته عنها . . وأسلمت أمرها لله تنتظر
قضاءه فيها . ولما لم يتبق غير دقيقة واحدة صاح بها :

يا عزيزتى أنه لعار على أن تموتى أماى وأنا مكتوف اليدين .
إن كلمة واحدة من فيك كفيلة بانقاذ حياتك الغالية . ثم ركم
بجانها ضارعا متوسلا يستحلفها وينادىها بأحب الأسماء إليها
فأشارت إليه بأصبعها أجابة لطلبه فاندفع إلى ساعدها وقبض
عليه بكلتا يديه وأنهال بفيه على موضع اللدغة ينهل السم منه
وبعد فترة قصيرة أفاق وردة واستردت نشاطها وقالت له قولة
للماكرة :

« ما كان ثمت شعبان يا عزيزى ولعلى مثلت دورى على
النحو الذى ترضاه » فأجابها :

« ما كنت أجهل ذلك ولقد فطنت له منذ الصرخة الأولى »
ثم طافت على شفعية بسمه حبيبة وقال : « ألا تكون هذه
القبيلات القاتاة عربوناً لارتباط مقدس . »

وكان فيما جرى بين وردة وصاحبها شيء من الإغراء البريء

والإغواء السائع، وما وردة إلا إحدى بنات حواء. وغشيها الصمت
 هنية.. غير أن الفتاة كانت مشوقة إلى استيعاب حديث الثعابين
 وكان الفتى محذقا في وجهها الوضاء كما يستوحى قسماته ما تحدث
 به نفسها، وقبل أن تبتدره بسؤال قطع حبل هذا الصمت فقال :
 « قد تكونين سمعت من جدتنا أو من إحدى عجائز قريتنا في يوم
 من أيام الطفولة بأمر الثعابين المعمرة أو كما يسميها العامة الثعابين
 « المؤنفة » لأن عمر الواحد منها على ما يزعمون ينيف على ألف
 سنة مما يعدون ، ويسمونه كذلك « الآف » فإذا بلغ هذه السن
 ونبت الشعر على جلده فقد بصره فيعوضه الله عنه جوهرة وهاجة
 يكنها في جوفه فإذا خرج ليلا ألقاها تتدحرج أمامه. ومن مزاعمهم
 أنها إذا ألقيت أضاءت ما حولها فيجد على سناها هدى حيث
 يسير وإلى حيث يجد فرسته . وهو على هذه الجوهرة جد حريص ،
 فإذا بدأ نور الصباح غيبها في جوفه مرة أخرى وعاد إلى مكانه فلا
 يخرج إلا إذا جن الليل . ولعلك سمعت فوق ذلك من أمر هذه
 الجوهرة عجبا وأن أناسا كانوا يقتفون آثار مثل هذا « الآف »
 فإذا تبينوها كنوا له عندها فإذا خرج وألقى بجوهرته تحمينوا فرصة
 غفلة منه عنها فانقضوا عليها في خفة وسرعة وطووها في لفافة كثيفة

حالكة اللون وفروا بها وهم أحرص ما يكونون على ألا يبين شعاع من نورها النفاذ فيتعقبهم صاحبها ويقضى عليهم . وإذا ما نجوا بها وآووا إلى مساكنهم وضعوها في كن لا يتسرب منه الضوء ووضعوا معها بعض الذهب فاذا أصبح الصبح وجدوا هذا الذهب مضاعفاً .

ولعلك ترين أن هذه المزامح تحمل في طياتها دليل خرافتها . ولتعلمى أن العلماء المشتغلين بدراسة الزواحف وحياتها وطبائعها لم يجدوا في الثعابين ما يجدون في غيرها من العلامات الميرة الأعمار ، فلم يقطعوا برأى ثابت في آجالها ولم يعثر المشرحون منهم يوماً على أثر الجواهر في جوافها . ولعل خرافة الجوهرة نبئت من أن جمهرة الثعابين زواحف ليلية وبخاصة السامة منها ، وهي كغيرها من حيوانات الليل ينبعث من مقلها في الظلام الحالك ضوء لامع ، ولقصر جفون الثعبان عن عينيه وعدم إغماضها يستمر ظهور هذا الضوء منها .

مم حانت منه التفاتة عارضة فرأى على كشب بين الأعشاب سحلية وضفدعا يتحفزان لصيد الهوام ، فكلما حامت فراشة أو ذبابة كان لسان أى منهما أسرع من البرق إلى اصطيادها ، فسكت

وظل يتابع حركاتهما في شغف واهتمام وسار في حركة غير إرادية فلما أحسا وقع قدميه اختفيا . وحول هذه الزواحف قامت خرافات لاتقل غرابة عن خرافة الثعابين . فقد زعموا أن الضفادع تسقى سكان القبور ممن قدموا في دنياهم صالحاً وتأتى يوم الحشر وفي فيها الماء فتسقى الناس في موقف يجف فيه الريق ويزيغ فيه البصر . وأن السحلية تحمل مفاتيح جنة الخلد ولذا استنكروا قتل هذه أو تلك أو الأعتداء عليهما .

ولما هم بالرجوع إلى مجلس وردة رأى في كومة من الرمال آثار ثعبان فجعل يبحث في التراب حتى أخرج حية رقطاء^(١) قد حبستها الطبيعة ثوباً خلاباً يبهى العيون رونقه ولا يكاد يفرق بين رأسها وذنبها والتفت حول معصمه وحملها إلى وردة فانزعجت وصاحت به أن ألقها يامجنون وإلا عضتك ، فكان في ذلك قضاء عليك . فتبسم ضاحكاً من قولها وقال : لا بأس على ولا عليك من هذه الحية فهي عزلاء من كل سلاح قاتل فأسنانها كأسنان «البلطية» لاتضر ولا تؤذى . ولو علم القدماء حقيقة أمر هذه الحية وغيرها من الحيوانات المظلومة «كالبرص» الذى اتهموه

بيث ميكروب الجذام فى ملح الطعام لأفادوا من الإبقاء عليها
الشيء الكثير من إبادة الحشرات المنزلية الضارة كالديدان
والصراصير والذباب والبعوض إلى غير ذلك . ولا بتدعوا لها
خرافة تحميها كالسحالي والضفادع .

فلما أحس بعض الطمأنينة فى نفس وردة دنا منها وهو يداعب
الثعبان «الدساس» ويمسح على جسمه وهو هادىء فتراجعت
فى خوف قائلة : أنها تخشى أن تنالها الحية بلدغة من لسانها المسموم .
فقهقه عالياً وكاد يستلقى من الضحك وقال ساخراً : « حقاً إن
الجهل نور » يا عزيزتى من أنباك هذا . وكيف يقرص اللسان
أو يعض . لا يقرص ولا يقتل إلا لسان الإنسان . أما الثعبان
فإن أكثر من استعمال لسانه فلأنه أقوى حواسه وهو له كمصى
الأعشى يتحسس به كل ما يعترض طريقه ويختبر به الماء قبل
أن ينزل إليه أو يشرب منه . والثعبان السجين يظل زمناً فى
بدء إيساره يتحسس بلسانه نواحي الحبس ودقائقه لعله يعثر على
مخرج .

وكذلك قامت حول الذنب أراجيف شتى فذهب كثير من
السذج إلى أن الثعابين تمض بأذنانها وأن هذه العضات كثيراً

ما تودى بحياة الإنسان . وبلغ هذا الخوف مبلغاً عند هؤلاء الناس لدرجة أنهم يخافون من الذنب المبتور طالما هو يتحرك . ولعل هذه الأراجيف نشأت من أن بعض الحيات قد سلحت بشوكة في طرف الذنب . بل قد أذهب بك إلى أبعد من ذلك في الدفاع عن هذه الأفاعى وعدم الخوف حتى من السامة منها ، فهي بطبيعتها شديدة الميل إلى السكينة . لا تستثير عدواً ولا تبدأ بالمهاجمة . وكثيراً ما تحاول الفرار إذا هوجمت ولكنها إذا أخرجت اضطرت إلى انتضاء أسلحتها للدفاع عن نفسها فهي لا تستعمل السلاح إلا عند الضرورة الملجئة ولا تستعمله جزافاً كما يستعمله الكثير من أبناء آدم .

على أن هناك ضرباً من الحيات شذت عن هذه القاعدة وجبلت على الفتك والخذل . فحية الأهرام المعروفة بالغريرية^(١) تهاجم الإنسان ولا تخشاه . وتميز بوجود صليب على رأسها ، ولون ظهر هذه الأفعى ضارب إلى الحمرة أو الغبرة وعليه خطوط بيض مشربة بنقرة . وهذه الأفعى سريعة الحركة كثيرة العض وتعتبر بحق أعدى أعداء الإنسان لأن سمها قاتل وضحاياها كثيرة

وخاصة في الهند . وقد يتناثر السم من أنيابها رشاشاً إذا ظلت مدة طويلة دون أن تعض فريسة ما ، ولا تتوانى في عض كل ما يقدم لها من الأشياء ، وإذا هاجت هاجت كل ما يصادفها على غير هدى وتكثر هذه الأفاعى الشرسة في صحراء مصر . وتشبه الغريبة في شراستها وعدوانها حية أوربية تشترك معها في اسم « الصليبية »^(١) وتنفرد باسم حية « جهنم » تنور أحياناً فلا تصادف شيئاً إلا ضربته بنيوها ثم تهدأ ثأرتها بغتة فلا تحرك ساكناً ولا تؤذى صاحبها ولو داعبها . وهناك غير حيات الأرض حية أمريكية تعيش بين الماء والشجر ضخمة الجسم مفرطة الطول حتى لقد يبلغ طولها عشرة أمتار أو يزيد وتعرف بـ « الأنا كندا »^(٢) باللغة الخطر على الصيادين . ويروى راو أن أحد الهنود الحمر كان مع امرأته في زورق يتصيدان البط فرمى واحدة فجرحها ثم ترك بندقيته في الزورق وراح يتعقب البطة وما أن أدركها ومد يده إليها حتى أحست به إحدى هذه الحيات وفي مثل لمحظة الطرف كانت قد طوقت جسمه وبدأت تهصر عوده فصرخ صرخة عالية مستنجداً

Vipera berus (١)

Anakonda (٢)

زوجته فأمرعت بمديّة حادة الى الحية فزقتها وخلصت زوجها من موت محقق .

وكان اصياد آخر ولد في العاشرة من عمره خرج معه مرة في الصيد فخلفه أبوه على حراسة صيده الذي جمعه على ضفة النهر وما كاد يبتعد عنه بعض خطوات حتى خرجت إليه أنا كندا فقيدت ساقيه وهت بجذبه إلى الماء فصاح الطفل صيحة مزعجة فرجع إليه أبوه وهو بين طيات الحية وكان يجيد الرماية فصب إليها رصاصة أطاحت رأسها دون أن يمس ابنه بسوء ونجا من نيتتين بأعجوبة .

وكثيراً ما تشجر بين التماسح الأمريكي (الليجاتور) على شراسته وبين هذه الحية معارك مروعة على ما في شهودها من روعة ومتمّة ، فيرى الرائي الأما كندا وقد التفت حول التماسح وهي تحاول قصف أضلاعه وهو يحاول ابتلاعها بين فكّيه تارة والفوس بها تحت الماء تارة أخرى فلا ينال منها منلاً ولطالما انتهت هذه المعارك بانتصار الحية على التماسح والقضاء عليه ، ومما يتحدث به أهل البرازيل أن أحد الهنود الحمر واسمه (مول) خرج للصيد في الغابة ومعه كلبه وفجأة شرع الكلب ينبج نباحاً غير مأثوف علم منه

سيده أنه لابد أن يكون قد بصر بأفعى غريبة، وراح يفتش عنها وعلى غرة منه وقبل أن يهتدى إلى مكانها هاجمته الحية ولدغته لدغة قاسية فلما أحسها أطلق عليها رصاصة دقت رأسها وفي مثل وميض البرق كان قد شق بطنها وأخرج مرارتها وأخذ يقطر صفراءها على جرحه بعد أن أوسعته . فمن عقائد الهنود أن إفراز صفراء الأفعى ترياق اسمها . وأحس (مول) أن الأرض تدور به وأصابه الوهن فسقط ورأى الكلب حال صاحبه فأسرع إلى القرية وهو ينبح نباحا محزنا فتوجس أهلها شراً واتبعوه إلى الغاب فدلهم على مكان (مول) فأروه طريقاً وبجانبه سيد^(١) الاحراج قتيلا وهو ثعبان برازيلي سام فتكشفت لهم جريمة الأفعى وحملوا صيادهم وعادوا به الى القرية فعالجوه بما لديهم من عقاقير نباتية يرونها ناجعة فيما مر بهم من تجارب ولقد خفت وطأة الداء عن الصياد المسكين ولكنه لم يشف الشفاء الحاسم فقد كان في مثل اليوم الذي أصيب فيه من كل عام يعاوده الألم ويعاود ساقه الورم . وتعلمى إن لم تكن تعلمين ان الثعابين لشدة رغبتها في السكون وميائها إلى السلام تقرر في أوكارها ما يقرب من نصف

أوقات حياتها وتستغنى فيها حتى عن السعى في الرزق قانعة بالتغذى بما تكون قد أدخرته في أجسامها في فصول النشاط من المواد الدهنية ، وهي لا تتطاحن على الرزق ولا تتنافس فيه ولا يعدو بعضها على بعض في سبيله . ولو نسج الناس على منوالها في ذلك ماتحاسدوا ولا تباغضوا ولا قتل بعضهم بعضا .

ولعل آباءنا الأقدمين كانوا أعلم منا بمزايا هذه المخلوقات وأوسع منا حيلة في استغلالها والانتفاع بها في أغراض حيوية شتى فأتخذوا من شحها بلسماً لأدواء المواسير والروما ترم والاورام الخبيثة . وقد ظهرت فائدة ذلك لبعض العلماء العصريين فاستعملوا سم «الفاشر»^(١) في مداواة السرطان والجذام . وفي بعض البلاد تستخدم الناس الحيات لقصا على الفيران وصغارها لأنها تستطيع الانسلاخ إلى جحرها الضيقة لطول أجسامها ودقتها ولينها فتخلصهم من صغارها قبل أن تكبر ويصعب اتقاء أضرارها . وفي البرازيل وفي الهند وفي جنوب إفريقيا معاهد خاصة تعنى عناية كبيرة بتربية الأفاعى وإجراء التجارب العلمية فيها ، واتخذ قدماء مصريين النواشر آلات مريحة لتنفيذ أحكام الأعداء عندهم

بدلاً من المقصلة والمشقة. ولعل ذلك ما حدا «بكليوباتره» ملكة مصر إلى الاستعانة بالحية في خلاص مريح من حياة ملأى بالمتاعب وتوفى ذل الأمر وعاره بعد أن توات على جندها وجند صاحبها «انطونيو» الهزائم. وقد صور أمير الشعراء شوقي هذا الحادث أبرع تصوير فيما كتبه في مصرع «كليوباترة» على لسانها تخاطب الأفعى :

هلمى الآن منقذتى هلمى

وأهلاً بالخلاص وقد سعى لى

شربت السم من فيك الزدى

بسلطانى وزدت عليه مالى

وبعض السم ترياق لبعض

وقد يشفى العضال من العضال

هلمى عانقنى أفعى قصور

بها شوق إلى أفعى التلال

حياة الذل تدفع بالمنايا

تعالى حية الوادى تعالى

وكان من عظم اهتمام القدماء بالثعابين أن صوروها في معابدهم

ولم يجدوا حرجاً في أن يؤلّوها وجعلوا منها رموزاً للقوة والسلطان فوضعوا صور الناشر في تيجان الملوك، وكان «بوطو»^(١) أى الحية المقدسة رمز الحكمة عندهم، وكانوا يهتمون بحفظها بعد موتها بالتحنيط وأقاموا منها ومن الققط وعصافير الجنة حراساً على مدينة الموتى في طيبة. وما كانوا يفرعون من رؤيتها في بيوتهم بل كانوا إذا دخلوا البيوت يصفقون اعتقاداً منهم أنها إذا سمعت التصفيق أخلت لهم الطريق. ولا على أن أقص عليك خرافة كانت تسود الشعب المصرى في قديم الزمان وهى أن الأفاعى السامة كانت تحايط الناس في بيوتهم وتعيش بينهم وتأكل من عسلهم وتشرب من نبيذهم وتحرمهم ولا تمسهم بسوء ولم يعكر صفو هذا الوثام بينها وبينهم إلا ما حدث في يوم من الأيام لولد أحد التجار إذ لدغه ثعبان صغير فقتله وجاءت أم الثعبان فلما علمت بالحادث قتلت ابنها ارضاء لأهل الطفل ورأت أنه قد يتعذر السلام بين الفريقين بعد ذلك فدعت أبناء جنسها إلى الهجرة. ومنذ ذلك اليوم تولدت العداوة بين الثعبان والإنسان. ويروى أن هذه العداوة كانت مكتوبة على الناس والحيات منذ أن أخفت

حية آدم إبليس في جوفها ومكنت له الوصول إلى حواء وآدم
فاغراها بمخافة أمر ربهما وحرصهما على الأكل من شجرة المعرفة
بل الشجرة الملعونة في القرآن فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما
وظفقا ينخسفان عليهما من ورق الجنة ثم أخرجهما ربهما منها
وخرجت معهما الحية وكان الأمر الذي تلقته من الرب (على بطنك
ترحفين ومن تراب الأرض تأكلين كل أيام حياتك وأضع عداوة
بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسائها ، هو يسحق رأسك وأنت
تسحقين عقبه) وشغل الحديث رفاة ووردة عن نفسيهما وعن
العودة إلى مضارب الخيام . حتى مالت الشمس إلى المغرب . .
وراح النسيم يتخلل أوراق الأشجار المتمايلة فيسمع لها خفيف
كخفيف الأفاعى التى يتحدث عنها رفاة ، وجعلت ألوية الظلام
تنتشر رويداً رويداً حتى غشت أديم الأرض وهدأت الأنفاس
وكانما سكنت كهنة (أتون) إلى المعابد يرتلون أنشودة الليل :
أيها المعبود ! أتون لقد آويت إلى أفق السماء الغربى فشمّل
الأرض ظلام كظلام القبور . .

هاهم الناس قد خفوا إلى مضاجعهم هادئى النفوس يداعب
الكرى جفونهم فباتوا فى سبات عميق لا يحسون شيئاً .

وها هي الأسود الضارية قد نشطت من أجامها تطارد
الفرلان الوادعة

وها هي الأفاعى اللادغة قد خرجت من أوكارها تفتك بكل
حي من مخلوقاتك

وها هي الأرض قد سكنت وغابت عنها أشعتك الدافئة .
كل ذلك لأن مدبر هذه الكائنات وراعيها قد سكن إلى
أفقه يستريح . أصاب قلب الصاحبين رهبة ووحشة . وأشفق
الفتى على وردة فأخذ بيدها وهو يقول : لقد آن لنا أن نعود الآن
فإننى أخشى على أهلك أن يأخذه القلق لنعيتنا ولأدع الآن
هذا « الدساس » البريء يعود بدوره إلى داره . وألقاه فى رفق
على الأرض فانطلق يزحف وها يرقبانه وقد تملك وردة الدهش
لما خيل إليها من سرعة زحفه ومارا خلفه وهى لا تصدق أن
فى طوقهما أدراكه . فلما لحقاً به تملكها العجب لما توهمت من
سرعة . فزحف الأفاعى خداع للبصر يظهر تماوجه البطيء سرعة .
ثم تابعا سيرهما فى فتور وهما يتمنيان إلا تطوى الأرض تحت
أقدامهما فتنتفىض بانطوائها هذه الفترة الحلوة من حياتهما التى
وهبها أياها الزمن . وأخذ رفاة يبدى أساه على انقضاء أمد

هذه الخلوة ويتمنى أن لو استحال طأثرى إلف بهذه الواحة يخلوان بها وبينان عشهما فيها ، وفطنت وردة إلى مرأى حديثه فاصطغ وجهها بحمرة الخجل ولكنها استجمعت قواها من الرغبة المتبادلة بين قلبيهما وقالت ولسانها يتعثر استحياء : أن في يدك تحقيق هذه النى وما أخال عمك إلا مجيباً رجاءك إذا كشفت له عن رغبتك وأطلعتة على سريرة نفسك . فنشط رفاعه وانقلبت رغبته في البطء إلحاحاً في الأسراع وود لو رأى نفسه مستقراً أمام عمه فتتحقق أحلامه وأمانيه . . . وسارا يستحضان الخطى حتى أتيا الخيام فانقيا الشيخ حيران قلقاً وقد تملكته الوسوس والريب لغيبتهما . فما أن رآهما وعلامتهما البشرى على وجهيهما النذيرين الباسمين حتى اطمانت نفسه الطيبة وهذأت . .

ولم يطق رفاعه صبراً على ما تكنه جوانحه فباح لعمه بحبه لوردة وصارحه برغبته في اتخاذها زوجاً له . . فسر الشيخ بهذا النبأ وقام إلى الفتاة وخطبها يقبأهما و يباركهما ويدعو لهما أطيب الدعوات . . ثم أهاب بفتاته : —

« هيا يا وردة وهيئى لنا طعاماً فقد نال منى الجوع ولا بد أنكما قد لقيتما في رحلتكما هذه نصباً »

أعدت واردة الطعام ثم دعتها إلى المائدة فجلسوا يأكلون ويتندرون ولعلمهم لم يذوقوا طعاماً كان أشهى من هذا فقد أضفى عليه الجوع والسرور لذة لا تعد لها لذة .

وجاءهم نفر من أهل القرية مرحبين مهللين وانضم إليهم بعض أعضاء بعثة علمية كانت تنقب عن آثار في هذه المدينة الخالدة . واتخذ الجمع من حديث الثعابين موضوعاً للتسامر والتنادر . وراح الشيخ حسان يداعب ابن أخيه ويسخر من أفاعيه ويقص عليهم من أخبار الشيخ « عبد الفضيل » عميد قريتهم مع الأفاعى أغرب القصص . فقد زعم الشيخ « عبد الفضيل » فيما زعم أنه كان مسافراً في الصحراء ومعه بعيران وأدركه لغوب السفر فأوى إلى ظل ربوة يستجم بعض الاستجمام فأخذته سنة من النوم ثم فاق وقد أضى بعيريه فراح يتفقدهما ورأى على بعد شبحاً ضخماً ظنه أحد البعيرين فلما أتاها وجد الفأفاً ضخمة من اللحم يطل من وسطها رأس ضخيم يحمله عنق طويل كعنق البعير وتبينه فإذا هو أفعوان كجذع النخلة يبلغ طوله بضع قصبات فقفز الشيخ عبد الفضيل فوق ظهره فاعتلاه وجعل يسوقه بعصاه حتى أوصله إلى آخر السفر ثم نزل عنه وخلي سبيله فعاد أدراجه . وزعم أنه

هبط مع جماعة من صحبه حقل بطيخ فقدم لهم صاحب الحقل عدداً منه فأكلوا حتى امتلأوا وبقيت بقية تركوها حتى الصباح ولم تكن لديهم غير سكين واحدة وضعوها في إحداها . وقربت الثعابين في طوافها ليلاً بالبطيخ فأفرغت سمها فيه ما خلا تلك التي كانت تحميتها السكين وصبح الجماعة وهم لا يعرفون مما جرى شيئاً فطعموا من البطيخ فسرى السم في أجسامهم إلا الذين أكلوا من ذات السكين وكاد يقضى عليهم لولا أن تداركهم الشيخ عبد الفضيل فجاء بوعاء ماء تلا عليه بعض التعاويذ ثم تفل فيه وسقاه منه فبرئوا باذن الله !!

وكان رفاة يستمع لهذه القصص وأضرابها وهو يكاد ينشق من الضحك ورأى لزما عليه أن يخرج هذه الأوهام من عقول أصحابه فوعدهم أن يكون مسامرهم في تلك الليالي القمرية فيقص عليهم القصص الحق عن الزواحف في شتى شئونها .

المحاضرة الأولى رأس الثعبان

ولما كانت الليلة الأولى وأشرق القمر بر رفاعة بوعدة فجلس بين القوم يسامرهم فقال :

« تعرفت إلى صديق في « المنيا » هو أستاذ التاريخ الطبيعى فى مدرستها الثانوية ، وكانت دراسة الزواحف جزءاً من المنهج المقرر على تلاميذه . وكان الأستاذ مغرئ بدراسة هذه الخلوقات كلفاً بها يتقصى أخبارها ، وقد نشأت هوايته به من أنه كان يلتقى ببعض علماء الغرب الذين توفدهم حكوماتهم بين عام وعام إلى بلاد الشرق وصحراوته وتفتح لهم خزانات مالها للبحث عن نوع من الحيات لا يكون ممثلاً عندهم ، أو لتحقيق الفوارق بين ثعبان و ثعبان يكون التباس عليهم ، والعلم عند هؤلاء القوم ثروة ترخص فى سبيل جمعها للجهود ، ويتضاءل أمام توفيرها المال . وشعر حياء وطنيته بالخرزى من أن يتجشم الغرباء المضنيات من بعد الشقة وكثرة النفقة لينقلوا إلى بلادهم علم ما لم نعلم من خواص

شئوننا وصميم أمورنا ، ولا يكون في مصر رجل واحد يسمح
عن جبينها وصمة هذا العار ، فوطد عزمه على أن يكون ذلك
الرجل . فشطط للبحث وعكف على الدرس وظل يستجمع من
كل مربأة وكل ثنية ما تصل إليه يده ، ويتنقل بين معاهد
الغرب يستطلعها ما يتطلبه بحثه حتى أخرج عن الثعابين المصرية
كتاباً جمع شواردها ، وقيد أوابدها ، ونقله عنه بعض المعاهد
الأجنبية المعنية بهذه الدراسات . فاطمأن إلى أنه قد أدى بعض
ما يجب عليه من خدمة العلم ومن حق الوطن .

وكثيراً ما كان يخف بعض تلاميذ الأستاذ موسى
— وهذا اسمه — فينقلون إليه ما يقع تحت أيديهم أو يصل
إلى أسماعهم من الثعابين وأخبارها . وامل هذا كان تزلفاً منهم
وتقرباً إليه ، أو لعله معاونة بريئة فيما شغفوا من دروسه وعلمه . .
وقد جاءه يوماً بعض منهم وكنت في مجلسه ، فدخلوا عليه في
حجرتة الخاصة وهو غارق في بحوثه ، واستأذنوا الرجل من الحواة
الذين يحترفون صيد الثعابين فأذن له ، فإذا هو برجل قد فنى
جسمه إلا أقله ، ولعل المتنبي قد عناه بقوله :

كفى بجسمى نحولاً إننى رجل لولا مخاطبتى إياك لم ترى

وكان قصير القامة قليل الظل أسمر الجلد واسع العينين نافذ
البصر ساحر النظر قد توسط الحلقة الخامسة من عمره ، وفيه نشاط
وفيه فتوة قد عصب رأسه بلقافة ضخمة من قماش أبيض ،
وأسبغ على جسمه ثوباً أزرق فضفاضاً متهدل الأردان . أما قدماه
فكانتا حافيتين لا يتسع ضيق ذات يده لإنعالهما ، وقد تأبط
خريطة زرها على أحناشه . وفي صحبته جارية صغيرة اسمها
« سيدة » أكبر الظن أنها لم تدرج إلى الحلقة الثانية ملتفة في
أسمال بالية سود ، وهي مثال ناطق لأبيها الحاوي وإن امتازت عليه
بخفة الروح وظرف الطفولة . وكان ظاهر والدها الشيخ « عمران »
يشف عما في باطنه من براءة وسذاجة وصراحة فجعته المنية في
زوجه أم سيدة وضاق بموطنه في قنا ، فرحل عنها واستقر به
النوى في بلدة « دمشير » قريباً من المنيا ، فصادف فيها حديقة
مهجورة فسيحة الأرجاء ملتفة الأشجار قد مات عنها أصحابها
وغفل عنها الخلف الذين خلفوا من بعدهم فلم يعد يتعهدا أحد
بتهديب ، أو تمتد إلى نباتها يد بتشذيب . فنشابت فيها
الأغصان ، واستغلظ فيها حوشى الأعشاب ، واطمأنت إلى وكونها
جوارح الطير ، وأنست إلى وكورها سوارح الحيات ، ووجدت

أسراب الضفادع والقوارض رزقاً رغداً . وفشت أحاديث الناس ومزاعمهم عن هذه الحديقة وساكنتها من الجن وحراسها من الأفاعى . فهلعت لخشيتها النفوس ، وتفرغت منها القلوب ، ولم تجرؤ قدم على الدنو من أسوارها حتى في رابعة النهار . وسنحت الفرصة للشيخ « عمران » لاستغلال هذه الجنة المحفوفة بالمكاره ، وغامر بولوج الغيل على آساده ، ودخل الحصن على أجناده ، واعتمد على لطف احتياله حتى أنس بكل ما فيها . فكان يطرب لتناقق البوم ، ويهش لنقيق الضفادع ، ويشجى لنحيب الأفاعى . وكانت هذه الحديقة ضالته المنشودة فاتخذ من زواحفها رزقاً له ولا بنته ، فيحمل إلى المدينة الأحناش الحية وجلودها وشحومها فيبيعها ويعود بثمنها وهو راض كل الرضا . قانع بما قسم الله له من رزق حلال .

وكانت فرصة ميمونة تلك التي وصلته بصديقي الأستاذ موسى فقد أفادت عليه ربمأً وأفاضت عليه علماً .

دخل الشيخ عمران حجرة صاحبي ووقف أمامه مأخوذاً ، فقد رأى غرفة فسيحة تتوسطها منضدة طويلة صفت عليها أوان عديدة يشف صفاء زجاجها عما حفظ فيها من زواحف شتى ،

إن عرف منها شيئاً فقد غابت عنه أشياء ، ورأى الأستاذ محققاً بمنظاره في ثعبان يعد صفائح بطنه وحوله بعض تلاميذه يدونون له ما يملئ عليهم . وبدأت على الشيخ الحيرة في تفسير هذه الأناز وكأنا حدثته نفسه بأن هؤلاء السحرة يزعمونه في رزقه وينفسمونه في عبسه . ولحظ الأستاذ عليه هذه الحيرة فأراد أن يمازحه ويتركه في حيرته فتشأغل عنه فترة ، ثم رفع رأسه يسأله عما في جعبته . فأخرج له خليطاً من نواشر ما بين أغبر مطوق بطوق أسود ، أو أصفر مشوباً بحمرة على الجسم ، وأراقم (١) مختلفة ألوانها بين رمادي وزيتوني ورولى به بقع غبراء ، ودسائبات رمادية أو مصفرة بها بقع كبيرة غير منتظمة لونها أغبر قاتم أو مائل إلى السواد ، ومقرنات (٢) وقرع (٣) صفر انتشرت على ظهورها بقع غبراء قد ثرمت أنيابها وكنت أفواهها جميعاً دون الدساس . وجعل الأستاذ يتناولها واحداً بعد واحد يفحصها ويدعها صندوقاً بين يديه . ولما كان دور الدساس والأستاذ ممسك به يقابه بدرت منه حركة عصبية وعضه في أصبعه عصاة

(١) Coluber

(٢) Cerastes corastes

(٣) Cerastes vipera

أدمته ، فاضطرب الشيخ عمران وبدت عليه أمارات القلق خوفاً على صاحبه ، ولشد ما كانت دهشته حين رأى الأستاذ يمسح الدم بقطعة قطن مغموسة في الكحول وهو هادئ باسم يطمئن الحاضرين إلى أن هذه لا تضره في قليل ولا كثير ، وزادت دهشة الشيخ فسأل الأستاذ : هل هو « محوى أو واصل على الرفاعى » ؟ فصحك صاحبي حتى كاد يستلقي من الضحك وقال له : انتظر معي قليلا فسأنبئك بعلم ما لم تعلم .

ودقت الساعة ليحاضر الأستاذ تلاميذه أعضاء جماعة الزواحف وكان قد وقّت لهم من فراغهم ساعات محدودة في أيام معدودة يختلفون إليه فيها يشهدون التشرّيح تارة ، ويستمعون للشرح تارة أخرى .

والتفت الأستاذ إلى الشيخ عمران يقول : « إنها فرصة حسنة أن تشترك معنا في هذا الدرس ، وليتك حريص على أن تكون معنا في بقية الدروس إذن لنسمعك رأى العلم في الثعابين وتقيسه إلى ما علمتك التجارب والمشاهدات » . فسر الشيخ لهذا العطف ، وشكر لصاحبي تكرمه عليه وتبسّطه معه . ولقد واظبت

فيما بعد على حضور سلسلة محاضرات صديق ، كما حرصت على تدوينها . وهاكم بعضاً مما تعلمته عنه :

« اعمل أول ما يسترعى النظر في الثعبان الاختلاف الواضح في شكله عن أشكال سائر الحيوان ، فهو جسم مدمج غير مفصل يسعى بغير أطراف ، على أن كثيراً من الحيوانات قد شاركت الثعابين في مظهرها الخارجي هذا فانعدمت فيها الأطراف كما هي الحال في أنواع عدة من الأسماك اتخذت أشكال الحيات وأصبحت تسمى خطأ بثعابين الماء . وهناك طاقة أخرى من الحيوانات الصفدية^(١) لا تشبه الصفدع المعروف في شيء ، ولكنها أقرب ما تكون إلى الثعابين الدودية الصغيرة لولا أن هذه الأخيرة سريعة الحركة ، ويمثلها في مصر نوع اسمه (الباح)^(٢) وهو أصغر الثعابين عندنا إذ يبلغ طوله ١٩٣ ملمتراً ولون ظهر هذا الثعبان أرجواني أغبر مشرب بحمرة والبطن شاحب ، وليس من السهل صيده لأنه أملس سريع الزحف قدير على الإفلات ، ولا يعرف بالضبط على أي شيء يعيش . ويرجح أنه

Gymnophiona (١)

Leptotyphlops (٢)

يعيش على الحشرات ، ولا يفوتنا بهذه المناسبة الإشارة إلى أن أكبر الثعابين في مصر هو الناسر المعروف و يبلغ طوله مترين . وكما أن في الأسماك والضفادع كثيراً من أشباه الثعابين كذلك نرى في الحيوانات الورلية التي منها السحالي والأبراص والورل والضباب وغيرها عدداً كبيراً من الأنواع^(١) يصعب على غير المشتغل بالزواحف أن يفرق بينها وبين الثعابين ، ولولا وجود الجفون عند هذه الحيوانات وبعض فروق أخرى لا يتسع المقام لذكرها لانضمت هذه الزواحف بحق تحت سلسلة الثعابين .

ويقول العلم إن الزواحف وهي تضم التماسيح والسلاحف والحيوانات الوريية والحرايى والثعابين ، قد انحدرت كلها من زواحف بائدة لم يبق منها إلا حفرياتها ، وأن الثعابين وهي أحدث الزواحف ظهوراً على الأرض قد تطورت من زاحفات كانت تسير على أربع . والدليل على ذلك أن ضروباً من الثعابين لا تزال تحتفظ حتى الآن ببعض عظام الحوض وبالأطراف الخلفية ضامرة تحت الجلد ما نحسب وجودها عبثاً .

ولا يفتنى كذلك أن أوضح لكم أنه إذا تعددت الأسماء من

Anguis fragilis (١)

ثعابين وحيات وأفاعى فإن مدلولها جميعاً واحد ، على أن بعض العلماء قد جعلوا الحيات اسماً^(١) جامعاً وخصوا باسم الثعابين الأنواع الجبلية^(٢) وقصروا لفظ الأفاعى^(٣) على السامة التي تحرك فكها العلوى .

وليس بالهين أن تقسم الحية إلى أكثر من رأس لاصق بطرف الجسم الأعلى ، وذنب متصل بطرفه الأدنى ، اللهم إلا إذا اعتبرنا الوصلة الدقيقة التي بين الرأس والجسم عنقاً .

وفى الحق أن رأس الحية هو موطن الخطر ، وجماع الشرفيه . وامل الصواب أن نقول ذلك عن الفم الذى هو أهم جزء فى الرأس . ويجدر بنا أن نلاحظ أن رؤوس الحيات كأجسامها لم تصب كلها فى قالب واحد . فمنها المستطيل الرفيع والعريض المنبسط ، ومنها المدبب والمستدير ، ومنها ما يكون فى مثل ضخامة العنق ، وما هو أضخم منه وأعرض . وفى الرؤوس عيون لم تطبع كذلك على غرار واحد . فمنها صغيرة دقيقة تختفى تحت حراشيف ، ومنها المتوسطة والكبيرة . وفى هذه العيون على اختلافها

Ophidia (١)

Colubridae (٢) وهى تضم الثعابين الضخيلة وفيها السام وغير السام

Viperidae (٣) كل حيات هذه العائلة سامة

سحر عجيب إذا سلط على الفريسة جمد الدم في عروقها فلا نستطيع حراكا حتى يلحق بها الثعبان فيواربها فيه . وقد حبت الطبيعة هذا الغم بعظام متحركة ، وانقسم الفك الأسفل إلى شقين يصل بينهما رباط مرن ، فإذا فغر الثعبان فاه اتسع لابتلاع الفريسة الضخمة التي قد يكون حجمها خمسة أضعاف حجمه . وقد يحتال بعض الصيادين لصيد الحيات بربط فرائس كبيرة بالقرب من أججارها حتى إذا ابتلعها واستقرت في جوفها كانت بمثابة الغل لها وسهل عليهم الإمساك بها . وقد شاعت هذه الحيلة بين صيادي (الأصلات^(١) في السودان) فهم يوثقون الأصلّة عنزاً خاف جدار قد فتحت فيه كوة ضيقة لا ينفذ فيها جسم الأصلّة إلا بمشقة ، فإذا نفذت بمقدمها وابتاعت العنر وهمت بالرجوع ضاقت عنها الكوة وظلت رهينة حتى يدركها الصائد فيقبض عليها .

ومن الطرائف ما يروى عن الأصلات الهندية أن واحدة منها صادفت ابن عرس فسلطت عليه عينها فشلمته ثم التهمت له ولكنه لم يكد يستقر بين فكها حتى أفاق من غشيته والتمس الخرج

(١) Python

فوجده بين عظام سقف الحاق غير المتحممة فظل ينخر فيها بأسنانه الحادة حتى خرقها وقفز منها ولكنه كان قد أصيب بعدة جراح من أسنان فوق عظام الحلق فقضت عليه كما قضى هو على الأصل . . وقد يتساءل متسائل كيف مر ان عرس في فم الأصل و بين أسنانها وفيه أثار من حياة؟ والواقع أن الحيات على اختلاف أنواعها تبتلع الرؤس ولا تمضغها وما أسنانها إلا أسلحة للفتك أو لمنع خروج الفريسة لأنها مدببة ومقوسة إلى الداخل. والمعروف عن هذه الأسنان أنها موزعة على الفكين جميعاً وقد تكون قاصرة على فك دون فك ، بل لقد تكون ضامرة أو معدومة ومن الأسنان أسنان صماء ظلت من بدء الخليفة حافظة شكلها لم يطرأ عليها تغيير ، ومنها أسنان تمحورت فصارت نيوباً ومن هذه النيوب ما لم يتم تمحورها فظلت قنواتها ظاهرة من خارجها . ومنها ما تد كل تمحورها والتحمت قنواتها فصارت أنابيب كأبرة الحقن . ومن العجيب أن تنبت هذه الأسنان في الفك ضعيفة فتقتلع في حالات الدفاع وفي حركات الابتلاع ثم تعود فتنبت بعد حين . والأسنان هي مقياس الخطر في الحيات . فالأسنان الأنبوية^(١)

تكون دائماً في مقدم الفك الأعلى وتتصل اتصالاً مباشراً بالغدد السامة فيشتد خطرهما . أما الأنايب^(١) القنوية فتكون في مؤخر الفك وعلى مقربة من الغدة السامة فيسيل السم في قنواتها تارة وفي تجويف الفم تارة أخرى فيقل خطرهما . أما الحيات^(٢) العواطل من الأنايب فيسيل السم من غددها إلى تجويف الفم ويصيب الفريسة عن طريق الجراح التي قد تحدثها الأسنان الصماء ويمتد خطرهما إلى الفرائس الصغرى . وعلى هذه الأسس يمكن أن نقسم الثعابين إلى سامة ونصف سامة وغير سامة ، على الرغم من أن غدد السم لم يحجر وجودها واحد من هذه الأنواع . ولقد ذهب بعض الناس إلى أن النيوب تظل محتفظة بسمها فلا يؤمن شرها حتى بعد اقتلاعها . وقد زعموا أن حاطباً من أهل البرازيل خطب عروساً فأهدت إليه في ليلة الزفاف حذائين طويلين يقينانه نيوب الأفاعى إذا خرج إلى الغابة للعمل في قطع الشجر . وفي أحد الأيام عرضت له حية من ذوات الأجراس فهم بقتلها وهمت هى بالدفاع عن نفسها فعضته عضه أصابت حذاءه

Opistoglyphae (١)

Aglyphae (٢)

ثم تولت عنه وعاد الرجل آخر النهار إلى عروسه وشرع يقص عليها قصته مع الحية ، ولم يكدها حتى تمت كلمة الأجل فيه . وبعد حين بنى بهذه المرأة حاطب آخر ووجد عندها الخدائين فلم يجد بأساً بأن ينتفع بهما ، وما أن احتذاهما أول مرة حتى لقي فيهما حتفه . وبقيت المسكينة وبقى الخدعان إلى أن فتح الله عليها بزواج ثالث وكان الحمام يترصده في خدائي صاحبيه فأصابه ما أصابهما ، وأخيراً رمى القضاء في أحضان المرأة المنكودة ضحية رابعة ، وترامت أخبار هذه الحوادث وتطلع الناس إلى كشف سرها فهداهم البحث إلى نابى الأنفى التى عضت الزوج الأول عالقين بأحد الخدائين وكشف لهم بذلك علة موت الضحايا الأربع .

وأقل القمر فأقل رفاة باب السمر إلى الليلة التالية .

المحاضرة الثانية

أجهزة الشعبان ووظائفها

وأشرق القمر في الليلة الثانية فاتخذ رفاعة مكانه من القوم
ووصل ما انقطع من حديثه فقال :-

« انتهيت بكم في الليلة التي سلفت إلى ما انتهى إليه صاحبي
في محاضراته الأولى لتلاميذه وللشيخ عمران وقد وثى رأس الشعبان
ايضاحاً وتعريفاً ثم انتقل بهم في محاضرة ثانية إلى الكشف
عن الأعضاء الباطنة في الشعبين وكيف أنها طويلة ممتدة
تناسب أشكالها وظواهر أشكال أصحابها فقال إن المرىء أنبوبة
طويلة تتصل بها معدة مستطيلة لا يفصل بينهما فاصل وفيهما
مرونة فلا يضيقان عن الفرائس الضخمة التي يفترسها الشعبان .
أما الأمعاء فقصرت وقلت فيها الألفاف وانتهت بمستقيم قصير
يفتح في الجمع وهو الحد الفاصل بين الجسم والذنب ويقع الكبد
على امتداد الجانب الأيمن للقناة الهضمية وهو طويل ورفيع ،
وعلى مقربة منه توجد المرارة وهي مملأة بالصفراء حتى عند

الجنين . أما البنكرياس والطحال فيقعان على الجانب الأيسر للقناة الهضمية ويفرز الكبد ترياقاً يقي الأفاعى خطر سمها الذى تنفثه فى فرائسها وتفرز الغدد اللعابية كذلك إفرازاً يساعد على بلع هذه الفرائس التى يأخذ الشعبان دائماً برأسها خشية أن تعوق الأطراف عن ابتلاعها، وفى الشعبين قناة وعزوف عجيب عن الطعام فقد تصوم العادية منها بضعة أشهر أما الكبيرة الضخمة فقد تصوم عشرة ولكنها راغبة فى الإكثار من الماء ما خلا الصحراوية فإنها تكتفى بما تجده من سوائل فى جسم الفريسة وعلى الرغم من قوة جهاز الشعبان وقدرته على الهضم حتى لا يدع من الفريسة إلا الشئ الطفيف كالأظافر والشعر والريش الذى تخرجه من (المجمع) فإن هذا الهضم بطيء لا يتم فى أقل من أسبوع فى الصيف وخمسة فى الخريف ويمتد إلى ستة عشر أسبوعاً فى الشتاء تبعاً لتدرج الحرارة التى يعتمد عليها الشعبان فى هضم طعامه وتضائل قلب الشعبان حتى كان أصغر أعضائه وامتدت القصبة الهوائية إلى مقدم القم لكى لا تعجز عن التقاط الهواء ولا يتعطل التنفس فى أثناء عملية البلع وطالت الرئة اليمنى وزودت بكيس يحتزن فيه الهواء فطغت على الرئة اليسرى التى توجد عادة

ضامرة منكشة وقد تنعدم فيما خلا بعض الثعابين كالأصلاط فتتكافأعندها الرئتان وأن كمية الهواء التي يختزنها الثعبان في رئته تغنيه عن هواء الجو ساعات بل لقد يستطيع أن يعيش في ناقوس مفرغ هواؤه أكثر من أربع وعشرين ساعة .

ولم يخل من الطول في الثعابين الجهازان البولي والتناسلي فالكليتان طويلتان يخرج من كل منهما حالب يفتح في الجمع ولا توجد في الثعابين مثانة وتقع الخصيتان في الذكر أمام الكلية ولكل منهما وعاء ناقل يفتح بجوار الحالب ويبلل جدران الجمع بما يفرزه من الإفراز المنوي وموقع المبيضين عند الأنثى كموقع الخصيتين عند الذكر تماماً وتنتهى قناة المبيض بمهبل يمتد فوق المستقيم ويفتح في الجمع .

وكما تضائل قلب الثعبان كذلك دق منه المخ واحتفظ الحبل الشوكي بحجم كبير ينتهى بآخر الذنب وضعت لدقة المخ هذه حاستا السمع والبصر فلا يبصر إلا الأجسام المتحركة ولا يسمع إلا الأصوات العالية ويؤيد ضعف سمعه ضمور الأذن وانعدام غشاء الطبلة إلى جانب دقة المخ وأن ذهب بعض العلماء إلى عكس ذلك وراحوا يدللون على حدة سمع الثعبان باصطدام

الموجات الصوتية بالطرف الخارجى لعظم الركاب وهو أحد عظام الجمجمة ويؤيد رأى هؤلاء فى حدة السمع عند الثعبان قوم يخافونهم فى تعيين حاسته فيذهبون إلى أنها ليست الأذن ولكنها اللسان إذ ينتشر فيه عصب دقيق يتأثر بأخف التموجات الصوتية وكلا الرأيين لم يؤيد بدليل من الواقع المحسوس الذى أثبتته التجارب كما أثبتت أن لسان الثعبان لا يغنيه عن عينيه الضعيفتين فإنه قلما يمتد به الأجل إذا منى بفقدما . ولم يعرف أن هناك ثعابين جديدة البصر غير حيات الشجر . ومما هو خليق بالذكر أن الثعبان لا يذوق بلسانه فإنه حتى الآن لم يعثر على أطراف العصب النوق فيه .

ودق كذلك العصب الشمى وقصر فتخذ بعض العلماء ذلك دليلا على فقدان حاسة الشم فى الحيات . فبأية حاسة إذن يهتدى الثعبان الذى لا يكاد يسمع ولا يبصر إلى فريسته فى الظلام الدامس ومن أية حاسة تنفذ رائحة الكلوروفورم والنفثالين إلى الثعبان فتضجره وقد تقتله . أيمكن أن يكون ذلك إلا بالشم ؟ وللشم وظيفته الهامة فى تداعى الزوجين الذكر والأنثى إلى التلاقى عند التزاوج . فيوجد على جانبي قاعدة الذنب غدة مستديرة

تكبر عند الأنثى وتضغر عند الذكر وتقع خلف قضيبه المتصلين بفقرات الذنب وتفرز هذه الغدة مادة كريهة الرائحة ترسلها الأنثى على اجنحة الهواء إلى أنف الذكر سفيراً لاغتلامها فيجاوبها بريح مثلها تشمها هي الأخرى . ولا يزالان كذلك يتقاربان على مهب هذه الريح حتى يتلاقيا ويتعانقا فتتنشط في الذكر حركة فرعى الشريان الظهرى الذى يكتنف تجويف اسطوانتى القضيبين ويملاً انسجتهما فينتشران وينفخ سطحهما الأجوفان فيبرزان وتبدو الأشواك المنتشرة عليهما فينشبهما في جدر مهبل الأنثى بعد أن يكون قد ضمهما وكون من شقيهما المتقابلين قناة تخرج منها الحيوانات المنوية التى تجمعت فيها إلى قناة المبيض وفيها تخلص البويضات . وقد يتم تكوّن اجنتها عند بعض الأنواع فى هذه القناة ثم تنفص فى داخلها أو بعد الخروج منها مباشرة . وأغلب الثعابين (تضع بيضها) الذى يتراوح عدده بين ٤٠ و٦٠ بيضة فى مكان يتوافر فيه الدفء والرطوبة فتضعها بين الصخور أو تحت أعشاب الصحراء . ولما تعنى الحيات بهذا البيض بعد وضعه . على أن بعض الثعابين الضخمة تحتضن بيضها وترتفع حرارة جسمها بضع درجات فى

أيام الاحتضان والأمهات من الثعابين لا تكمل صفارها ولذا تخرج الصفار من البيض مزودة بكل ما يميزها في حياتها من قدرة على السعى لكسب القوت وبالسّم والناب في الأنواع السامة للفتك بفرائسها وللزود عن نفسها وينشط نموها في الأشهر الأولى ثم يتدرج تدرجاً طبيعياً بعد أن تكون قد ترعرعت وقويت وتظهر علامات هذه القوة في سرعة تعقب الفريسة وتسميمها أو الالتفاف حولها وهصرها تحت ضغط عضلاتها المفتولة التي تمتد على طول الظهر والتي تكتنف الضلوع وتصل بها وبال فقرات وهي التي تسبب الزحف بتقلصها فيحدث انقباضها اندماج الجسم بتعرجات متناوبة يمنة ويسرة . ويساعد في اتمام هذه العملية سهولة التواء العمود الفقري وحركة الضلوع العائمة وتتصل بهذه الضلوع الصفائح العريضة العديدة التي على بطن الثعبان بانسيج عضلي ويمكن اعتبار هذه الصفائح أقداً وتلك الضلوع سيقاً وكأنا يسمى الثعبان على أرجل داخلية لا يفتن لها الناظر وقد تستمر الحركة عند الثعابين حتى بعد قتلها وسلخها وخروج الدم منها وقد يظل الرأس بدد فصله يتحرك حركة مستمرة وينساب الجسد يضرب في الأرض على غير

هدى وترجع هذه الحركات إلى حيوية العضلات ولقد رأيت
ذلك رأى العين فى عمليات التشريح التى أجريتها ولعل هذه
المشاهدات قد افسحت للناس مجال التندر بمحادث لم تسلم
من المبالغة عن بعض اجزاء من الثعابين فصلت عن أجسادها
ولم تنج بعض الضحايا من شرها ..

وأقص عليكم نادرة رحالة إنجليزى كان يسير فى أحد أغيال
أستراليا ومعه عدد من كلابه فظهرت له حية بغيضة قبيحة الخلق
كراهية النظر فى رأسها قرون ناتئة وحول عينيها وأنفها صفائح
بارزة ويسمى لذلك الإستراليون (حية الموت) فأغرى بها الكلاب
فأنتقض عليها اثنان ذهباً ضحية النضال معها وسدد إليها الرحالة
رصاصة أطاحت رأسها عن جسمها فذهب كلب ثالث يداعب
الرأس الطائر فأصابته منه عضة الحقته بأخويه .

وكما يزحف الثعبان على سطح الغبراء يستطيع أن يتسلق
الجدرو والأشجار ويقفز فى الهواء قفزات واسعة وكم أزعج بهذه
القفزات فارساً فوق جواده أو جملاً فوق جملة بل لقد يقفز فى
مركبات القطارات السريعة وهذا سر تسمية بعض الثعابين

بالطيارة^(١) وكذلك يجيد السباحة في الماء بل لقد ألفت بعض الحيات^(٢) العيش في البحر والتوالد فيه وهيأتها الطبيعة لهذه البيئة فضممت الصفائح البطنية في بعضها وانمحت في البعض الآخر واستحالت أذنانها زعانف كزعانف السمك وانقطعت كل صلة بينها وبين البر فلا تخرج إليه ولا تطيق الزحف عليه ولهذا الثعابين خطرهما الدائم فكم وقعت في شبكة صياد في الخليج الفارسي وهو جاهل بها غافل عن سمها فلقى حتفه من أنيابها .

وتنشط حركة الحيات وتهدأ تبعاً لدفع الجو الذي تعيش فيه و برده فيكثر دووبها في الربيع والصيف وتفت وتحمل في الخريف والشتاء وإذا اشتد البرد وأدركها القر أخذت إلى السكون التام ولجأت إلى البيات الشتوى في أجحارها وفي هذا الفصل تهبط درجة حرارة أجسامها خمس درجات أو أكثر ولعدم ثبات درجة هذه الحرارة سميت الحيات وأمثالها بذوات الدم البارد . وكثيراً ما يستغل بعض الحواة المحترفين هذه الظاهرة في التمويه على جمهور المتفرجين وخداع الناظرين ليستجلبوا إعجابهم ويستدروا أموالهم ومن طريف ما يروى في ذلك أن حاوياً إسبانياً كان يظهر على

Hydropunae (٢) Coluber rodrhaichis, rogersi (١)

بعض المسارح وقد لف حول صدره وعنقه أصلة ضخمة يبلغ طولها نحو اثني عشر متراً والمعروف عن الأصلة أنها قد تشتبك مع التماسح العظيم والنمر الخطير وأضرابه من الوحوش الكاسرة فإذا التفت حولها حطمت أضلاعها وأزهقت أرواحها فيثير مظهر الرجل بين أطوائها عجب النظارة وإعجابهم ويقابلونه في كل مرة بعاصفة داوية من التصفيق وكانت له خلية تعينه على سبك حيلته فتغمر الأصلة قبيل ظهور صاحبها بها على المسرح في حوض من الماء الثلوج ثم تخرجها خدرة فاقدة الحس فلا تضر الرجل شيئاً وينخدع الجمهور الساذج بهذه الحيلة المحبوكة . ولحظت الخلية على صاحبها في أيامه الأخيرة أنه كان يغافل ويفازل بعض الممثلات والمعجبات بقوته وجراته ويتصل بهن اتصالاً مريباً أثار غيرتها واشتدت الغيرة فصارت حتمداً واشتد الحقد فصار بغضاً وأصرّت على الانتقام لنفسها منه فأغفلت الأصلة في إحدى الليالي ولم تغمرها بالماء كعادتها وحملها الظلوم الجهول إلى المسرح بين هتاف الناس وتهليلهم وما هي إلا لحظات حتى وجم القوم كأنما سكرت أبصارهم وتجلت أمارات الفزع على وجوههم ودب الإضطراب في صفوفهم فقد رأوا الأصلة تضيق الخناق على الرجل وتشد على عوده الرقيق بمجرد إحساسها

بحرارة جسمه فاحتبس الدم في وجهه وتدلى لسانه من فمه ثم سقط على خشبة المسرح جثة هامدة . حدث ذلك وخليته من وراء الستار تنظر إلى صنع الحية مستشفية من غيظها منه ونقمتها عليه والمرأة لا تقف عن ارتكاب أفظع الجرائم إذا أكلت الغيرة قلبها ولعب الشيطان برأسها . وكذلك ذهب المسكين ضحية كيد امرأة كانت صحبتها أشد خطراً عليه من صحبة الحية ولعل في مثل هذه الحوادث عظة للغواة المفتونين بمظهر النساء وخضوعهن واين حديثهن فليس ظهورهن في هذه الجلود بواق من شرهن لأنهن إذا انقلبن كان في انقلابهن خطر لا يدفع كالحيات التي تعجبك أجسامها ويستهويك لمسها وتروك ألوانها الباهرة الفاتنة ما بين أسود فاحم وزيتوني قاتم وأصفر ناصل وذهبي لامع وجلود قد وشتها خطوط طولية متوازية أو عرضية متلاحقة أو غشتها قطع متراكبة مختلفة الأصباغ متباينة الألوان أو غير هذا أو ذاك مما تذهل ريشة العنان المبدع عن تصويره . ولكنها على الرغم من هذا الجمال قد كن في أنيابها الموت . ولا يمكن التعويل على هذه الألوان في التفريق بين نوع ثعبان و ثعبان فقد أربت أنواعها على سبعمائة وألف ، تفرقت في جميع بقاع الأرض وتجمعها تسع

عائلات وخصت المنطقة الحارة بأكثر هذه الأنواع ولا بد لتمييزها
من الخبرة الواسعة والعلم الوفير ومن أهم ما تميز به اختلاف الأسنان
وعدد حراشيف الرأس والظهر وصفائح البطن .
وأفل القمر فأقفل رفاعة باب السمر إلى الليلة التالية . . .

أعداء الثعابين والسم

وما أشرق القمر في الليلة الثالثة حتى إتخذ رفاعه مكانه من القوم ليصل بما انقطع من حديثه وقال :

لقد انتهيت بالأمس حيث انتهى صاحبي من محاضرتة الثانية في شرح ناحية هامة من نواحي وصف الحيات والآن نتقل معه حيث انتقل صديقي إلى الكلام عن أعداء الثعابين قال : إن لها كما لغيرها من سائر المخلوقات عداة من جنسها أو من دونها لتحد من تفشيها وتنفسح الطريق لغيرها في الحياة فكان لها من جنسها أنواع عدة تملدو عليها . فالناشر^(١) البنفالي الذي يسميه الهنود «ملك الحيات» لا يجد أكلة أشهى من ثعبان يلتهمه . ومن روايات المرجفين عنه أن له حاشية قوامها عشر حيات فإذا اشتت نفسه الطعام أرسل صغيراً خاصاً متى سمته الحيات أسرع إلى المثل في حضرتة فيختار أحداها غيلة فينفث فيها سمه ثم يبتلعها . ومثل

هذه الأقاويص لا يعوزها الدليل على الشك في صحتها وإنما ولدها
عدوان هذا الثعبان على بني جنسه .

وهناك ضروب أخرى ليست أقل خطراً على بني جنسها من
الناشر البنغالي وإن كانت غير سامة وإن أجدرها بالذكور
« المسرانا »^(١) وهي حية اليفة من حيات البرازيل يحتفظ بها
الناس في بيوتهم ولا خطر منها عليهم ولا على أطفالهم ودوابهم .
وغذاؤها الوحيد الثعابين وأحباؤها ألدائها وأنكرها كذوات
الأجراس التي لا تكاد تظفر بها المسرانا حتى تقبض على عنقها
بالنواجذ وتقتلها ثم تعود إليها فتوارى فيها في جوفها . وقد كان
حضرة صاحب الجلالة المغفور له الملك فؤاد الأول بما أوتي من
سعة علم وحب اطلاع وبحث كل ما يعود على أمته بنفع يهتم
بشئون الزواحف اهتماماً كبيراً فاعتزم نقل عدد من هذه
الحيات إلى مصر لإكثارها في المناطق التي تكثر فيها الحيات
الخطرة انتقضى عليها كالناشر والبخاخ والمقرة .

أما الخضاري^(٢) فلا يقتصر غذاؤه على التوارض بل يفترس

Mussurana (١)

Malpolon monspessulana (٢)

كذلك الثعابين فيشلها أولاً بسمه ثم يبتلعها بعد أن يتأكد من موثها ويعيش هذا الثعبان ويختفي بين أوراقها فيصعب العثور عليه نظراً للونه الأخضر المشرب بالصفرة .

ولأبى السيور الغيطى^(١) الشرس معارك مروعة مع الثعابين تنتهى عادة بانتصاره عليها وقتلها وابتلاعها . وهذا الثعبان جرىء كثير العن سريع الحركة فإذا ما ظفر بالغريبة وهى أفعى قاتلة التف حولها وخنقها بعضلاته وقد يقتلها بسمه ثم يبتلعها . ويكثر هذا الثعبان فى الحدائق والحقول ولون ظهره زيتونى وعليه خطوط صفراء . ونعل من أطرف ما يروى من شأن هذه العداوة أن بعض أنواع الحيات مترصد البعض الآخر حتى إذا ظفرت هذه بفريسة وابتلعها انقضت عليها وافترستها فكأنها فازت بفريستين فى وقت واحد .

وكذلك سبط على الثعابين من الأجناس الأخرى عداة عديدون نجتزى* بذكر بعضها وانعرض عن بعض خشية الإطالة والملل .

فالملة الصغيرة تجند جنودها ثم تزحف على الثعابين فتجد فى

لسع شفاهها وعيونها ولا تزال بها حتى تقضى عليها وتلتهمها فلا تدع منها إلا عظاماً عارية ولا تجد الثعابين إلى مقاومتها حيلة .
وللثعابين نوع من التمراد الدقيق يطلق بها فإذا صحبها إلى أجحارها أو إلى دور أسرارها وتكاثر في أرضها فلا سبيل إلى خلاصها منه ويظل يشرب من دمها حتى يهلكها .

ولو جأت الثعابين إلى البحر لوجدت سمك القرش يترصدها فإذا وقعت بين أسنانه الماضية قطع أوصالها وغيّتها في جوفه .
وهي إذا غرستها نضرة الرياض وحامت حول غدرانها فقد لا تنجو من قنفذ ما كره إذا اشتد رائحتها في سواد الليل أو في بياض النهار أقدر عليها غير هيساب ولا وجل حتى إذا كان منها على قاب رفع أنفه ونشر شوكة فكان له بمثابة الخوذة والدرع والسلاح ثم يلتقي الحصان فيمكن القنفذ للثعبان أن يعضه عضه وعشرا وعشرين دون أن يحدث السم فيه أثراً لقوة مناعته ثم ينقلب الثعبان مشخناً بالجراح من أشواك القنفذ منهوك القوى من النضال فينقض عليه ويقبض على عنقه ويخلص الكون من شره .
وأشواك القنفذ ليست درعاً تقيه شر الأفاعي وسلاحاً ينازلها به فحسب ولكنها وقاية ضد كل عدو له ولهذا الحيوان النافع الوديع

المولع بالعزلة أيام يكن فيها تحت أوراق الشجر الجافة التماساً للدفع فتطارده الكلاب المؤذية وتخرجه من مكانه إلى العراء تحت القروا والطل فيقضى عليه وهو أجدر ما يكون بالمحافظة جزاء وداعته وانتفاعا بشجاعته .

وللثعابين من ابن عرس عدو له خطره فهو إذا خرج ليلا يعبث بين جدران البيوت في حظائر الدواجن يعدو عليها ويقطف رؤوسها وصادف ثعباناً طعنه من خلف وحاول تمزيق منطقة الذنب منه وكثيراً ما تتاح الفرصة للثعبان فينقلب عليه وإذا تمكن من عضه عضات محكمة فقد تودى بابن عرس لأنه أقل مناعة ضد سم الأفاعى من القنفذ واضرابه .

أما أبو متن وهو حيوان قريب الشبه بابن عرس بعيد عن مثل خفته ونشاطه شديد الكسل في النهار دؤوب في الليل أكتسب اسمه من افراز كرية تفرزه غدد خاصة فيه . تمر به الحيات نهراً فلا يابه بها ولا يحاول مهاجمتها ولكنها إذا وقعت تحت نظره ليلاً فهيئات أن تسل من أسنانه الحادة ولا تغنى عنها أنيابها السامة في مدافعتة شيئاً فقد توافرت فيه المناعة ضدها .
والتمس المصرى أو فأرة فرعون يخرج تحت ستار الليل

باحثًا عن فأر أو طير أو حفرة عامرة ببعض الثعابين فإذا صادف حية فالويل لها من حدة نابه ولا خوف عليه من سم نابها فقد أوتى من المناعة قسطاً وافراً وله مع الحيات مناورات شائقة يكثر فيها الكر والفر حتى يتمكن من رأسها فينقض عليها ويشدد خنقه فيظل يضرب بها الأرض وهو يزجر حتى يميتها .

وللثعلب كما للنمس في قتال الحيات حيل ومداورات فإذا هي هاجته القمها ذنبه بعد أن ينفش شعره فلا تصل أنيابها إلى جسمه الخالي من كل مناعة ضد سمها ثم يجذب ذنبه من فيها بسرعة وقوة فتثرم أنيابها ولا يزال بها كذلك حتى يفض أفواهاها ويأمن خطرهما ، ثم ينقلب عليها فيمتكسها . وامل الحواة أخذرا عنه هذه الحيلة فتراهم في صيد الثعابين يلقمونها قطعة من الصوف مثبتة في طرف عصا فإذا عض عليها الثعبان قبضوا على عنقه قبضة لا يستطيع الإفلات منها .

وكما كان للثعابين عادة في البر والبحر لم يخل من أعدائها الجو فالغربان تنقض على رؤوسها من السماء فتظل تنقرها دون أن تظفر الثعابين بعضة تدفع غائلة الغربان عنها فتخر صريعة أما الصقور الجوارح فإذا حاولت مهاجمة حية هبطت على جسمها

فيتسع المجال للحيات إلى عضها فتذهب ضحية لسمها .
 وكل خطر على الثعابين من عدائها لا يقاس بخطر الإنسان
 عليها وعداوته لها فهو يستخدم عقله وعلمه وقوته في إبادة
 وتعرف أساليب القضاء عليها ودراسة بيئتها وأنواعها والتفريق
 بين سالم وخطيرها وتحري أسباب التخلص من سمها والأمصال
 الواقية منه .

ولما كانت الطبيعة حريصة على المحافظة على بقاء كائناتها فقد
 وهبت الثعابين من مماننة البيئة ميرة طبيعية تستغها في التخفي
 عن أعدائها . مثلها في هذا مثل الحرباء والحشرات وخيرها التي
 تكتسب لون الوسط الذي يحوطها فيصعب على عدوها الاهتداء
 إلى مكانها . غير أن هذه المماننة ليس فيها كل النجاء . فالعدو
 يعرف عدوه ويعرف كيف يثاقه مهما تغيرت ألوانه واستحكمت
 مكانته . .

على أن الطبيعة وقد سلطت أبنائها بعضهم على بعض قد مدت
 الجميع بأسلحة يدفعون بها الضر عن أنفسهم ويوقعون بها الأذى
 بغيرهم .

فالبكتريا والفطر لها سلاحها السام الذي تنفثه في المواد الغذائية

كالأغذية المحفوظة والبطيخ . وأخص بالذكر هنا «البطيخ» إذ يقرن الناس عادة بين فسادهِ وبين الثعبان فيتهمون الثعبان ظلماً وزوراً إذا تركوا البطيخ معرضاً للهواء بأنه نفث فيه سمه أو كما يقول عامتهم «نخ» فيه أو «شمه» . . . والحق أن الثعبان يرى مما يهتمون بما فسد البطيخ إلا من سموم البكتريا التي يحملها الهواء وهناك نباتات أخرى خضراء نضرة في عصارته سموم تقضى على الحيوان والإنسان . . .

وحتى الحيوانات الدقيقة لم تخل من أنواع السموم تفرزها فتشل بها حركة فريستها وتلتهمها . . وكذلك الحشرات والعناكب لم تحرم هذا السلاح الفتاك في غددها .

أما الأسماك فإن الأنواع السامة منها تكون عادة ذات ألوان خاصة ولبعضها أشواك طويلة مدببة وبعضها على هيئة الثعابين . وشكلها عادة قبيح مخيف يبعث الرعب في قلوب أعدائها التي تجرد في التهام بويضاتها حين وضعها إذ ترى فيها نسل عدوها . . ويوجد السم في هذه الأسماك في أبسط صورة أى في دمها ثم ينتشر في جميع أجزاء جسمها وخاصة في الكبد والأعضاء التناسلية . فاذا أكلت هذه الأسماك دون طبخ تسمم جسم أكلها . . ويحكو

في ذلك أن أحد الإيطاليين شرب قدراً من دم « الجريس » المسمى بشعبان السمك ممزوجاً ببعض البيذ فظهرت عليه أعراض التسمم فضاقت نفسه وزاغ بصره واضحت عيناه كقطعتين من زجاج جامد لا نور ولا حياة فيهما لولا أن أسعف لقضى . .

ويوجد سم السمك في غدد في أفواهها يتسرب منها إلى تجويف الفم ويصل إلى جسم الفريسة بواسطة الجروح التي تحدثها الأسنان غير المخوفة والتي لا تتصل بالغدد . . وقد توجد هذه الغدد السامة تحت زعانف الأسماك وأشواكها التي تكون في العادة مجرقة وأكثر ما توجد عند غطاء الخياشيم . وقد تكون هذه الغدد منتشرة تحت الجلد حيث تفرز إفرازاتها السامة . وقلما تهاجم هذه الأسماك الإنسان وإنما يصبه سمها إذا هو ووطىء بقدمه إحدى أشواكها أو لمس بيده زعنفة من زعانفها .

ويؤثر سم الأسماك تأثيراً مباشراً على الأعصاب ويسرى الألم في المرىء والأمعاء ويعقبه مباشرة ضيق في التنفس وهبوط في القلب وخلل عام في المركز العصبي وتنتهي الإصابة في الغالب بالوفاة وللضفادع أيضاً سلاحها من السم الذي يكمن في غدد في جلدها

أما «السحالي» فلا يعرف غير نوع^(١) سام واحد منها ما يوجد في صحراء المكسيك . ولهذا النوع غدد سمية في الفم وأسنانه مجوفة . اما الطيور والتدييات فخالية من الغدد السامة وقد عوضت عنها بأسلحة غير السم تشهرها عند الفتك بفريستها أو حين اللود عن حياتها كالحالب والمناكير والأسنان والأظافر . غير أن بعضها قد زود بغدد شبه سامة يستعين بأفرازها في الدفاع عن نفسه . ومن هذا البعض عائلة ابن عرس ومنها «ابو منتن» الذي يفرز إذا أحس خطراً يهدده سائلاً من غدة خاصة . وكثافة هذا السائل دون كثافة الماء ولونه أصفر ذهبي وهو قابل للاشتعال بلهب ساطع تنبعث منه رائحة كبريتية كريهة . ولهذا السائل تأثير شديد مسمم على الأغشية وإذا أصابت العين نقطة منه التهبت وإذا تنشقته الإنسان تخدرت أعصابه ..

ويقال إن في اليابان فأرة سامة تحدث عضتها جرحاً متقطعة وتظهر في مكان العضة بقع زرق محمرة ويشعر المصاب بالآلام عصبية ويعتريه ذهول ويحس قرعاً في أذنيه ويستشعر خوفاً من الضوء ويتصبب عرقه ويصيبه انحلال في القوى ثم يقع في غيبوبة . .

(١) *Heloderma suspectum*

أما الثعابين فتفرز سمومها المختلفة التأثير من غدد خاصة . ويحدث الإفراز بواسطة انقباض العضلات المتشعبة حول هذه الغدد والمعروف ان الثعابين السامة قلما تفرز سمومها . أما الأفاعى فلا ينقطع لسمها افراز حتى إذا هي فقدت أنيابها . إذ أن سمها يسيل من قناة الغدد السمية إلى تجويف الفم فيلوث الأسنان الصغيرة . ولكن قل أن تكون اللدغة في مثل هذه الحالة قاتلة . ويلاحظ عادة على الثعابين السامة أنها تفقد الميل إلى اللدغ إذا هي فقدت أنيابها ومن الثابت المحقق انه لا يمكن إرغام الثعابين على نث سمومها نظراً لقوة عضلات أفواهها فهي لا تجود بسمها إلا بمحض إرادتها وفي حالة ثورتها . ولكن شوهد أن « الصل » (الكوبرا) قلما تهدأ لها نائرة أو يننى عن المهاجمة .

وللبخاخ^(١) وقليل من الأنواع الأخرى طريقة غريبة في قذف سمه من فتحات أنيابه . فليس زعماً باطلاً ما يقصونه عن مقدرة هذه الثعابين على أحكام الرماية وإصابة سمها للهدف الذى تقصده وهو عين الفريسة . فقد أثبتت التجارب أن أكثر ما تصيب هذه القذائف السامة من جسم الفريسة العين . وأن لها

تأثيراً سيئاً على القرنية والملتحمة قد يذهب أحياناً بالبصر. ويرجع قذف السم على هذه الصورة إلى سرعة وقوة الهواء المنبعث من الرئة حاملاً معه السم المتطاير كذاذاً للمطر. ويكون هذا السم في بادئ الأمر زجاً شفافاً فإذا جف صار لوناً رمادياً ضارباً إلى الصفرة..

وبفضل ما كشفت عنه التجارب من أن السم في الثعبان من المواد «التوكسينية» المماثلة لسم البكتريا والمشتعلة على «انتيجين» أى المواد التى تولد الأجسام المضادة فى الجسم (أصبح من المستطاع استخدام هذه المواد السامة فى عمل الامصال المضادة للتوكسين.

وليس من السهل تعريف سم الثعبان. فهو عبارة عن مقادير صغيرة من المركبات الكيميائية — سيأتى تفصيلها فيما بعد — إذا سرت فى الأجسام الحية غير الحصنة أصابتها بأذى شديد إن لم تفقدها الحياة. غير أن هناك عوامل أخرى — أغلبها طبيعى لها أثر غير قليل فى تأثير هذه السموم. فمثلاً تأثير السم فى جسم الطفل يختلف عنه فى جسم الرجل. فأغلب ما تكون النتيجة فى الحالة الأولى وفاة عاجلة بينما هى قد لا تعدو أضراراً طفيفة لا تلبث أن تزول فى الحالة الثانية. وكثيراً ما نجا أناس من تأثير هذه السموم تبعاً لدرجة قوة المقاومة الطبيعية الكامنة فى أجسامهم

كما يمتاز كثير من الحيوان بمناعة قوية ضد اللدغات السامة .
وليست هذه المناعة قاصرة على أجزاء خاصة من الجسم تحول دون
سريان السم أو توغله فيه كأشواك القنفذ والطبقة الدهنية في
الخنائير وريش الطيور وإنما تقوم هذه المناعة على استعداد طبيعي
عام في أجسام هذه الحيوانات .

وتختلف خواص السموم باختلاف أنواع الثعابين وحجمها
وغذائها . كما تتفاوت كمية سمها باختلاف فصول السنة . فتمرز
الثعابين في فصل الصيف سمّاً أكثر مما تمرزه في فصل الشتاء .
وبنقع غدد الثعابين في الماء المقطر وترشيحه يحصل على
سائل متعادل أو قلوى خفيف التفاعل لا يقل تأثيره الفسيولوجي
كثيراً عن تأثير السم ذاته .

والسم عادة شفاف إلا في حالة التهاب الغدد السمية فقد يتعكر
بفعل الخلايا الحماضية والكريات الدموية البيضاء . وهو لا طعم
له ولكن قيل عن سم الكوبرا أنه مر مذاق . وهو عديم الرائحة
غير أنه في بعض الأحيان قد يكتسب رائحة منبعثة من جسم الثعبان .
وسواء أكان السم سائلاً أم جافاً فإنه قابل إلى حد ما للذوبان
في الماء المقطر أو في محلول ملح الطعام الفيسيولوجي . ويبدو الماء

المذاب فيه السم هلامياً وإذا ترك المحلول مدة من الزمن تكونت فيه رواسب من المواد الزلالية والمخاطية وبقايا من الخلايا المخاطية وتفاعل سم الأفعى حمضى وهو فى الثعابين إما حمضى خفيف أو متعادل وهو يتكون من خثائر ومواد زلالية ومخاطية ودهنية وأملاح . كما يحتوى على ماء بنسبة ٦٥ - ٨٠ فى المائة . والعناصر المولف منها السم هى الكربون والأزوت والكبريت والزرنيخ وتختلف السموم من حيث مقدرتها على تحمل الحرارة . فبينما ترى سموم الثعابين تتحمل حرارة فى درجة ١٠٠ نجد سموم الأفاعى تضعف عند درجة ٧٠ - ٨٠ وإذا ما سخنت سموم الثعابين حتى درجة ٧٥ انفصلت عنها الأجسام الزلاية ورسبت وأمكن الحصول على خلاصة السم بمعالجة السائل بعد ترشيحه بالكحول والمعروف أنه ليس لسم الثعابين تأثير ضار إذا أخذ عن طريق الجهاز الهضمى الخالى من الجروح . ويرجع الفضل فى بطلان تأثير السم فى الجهاز الهضمى إلى تأثير العصارات الهضمية .

وكان رأى الشائع حتى سنة ١٧٩٤ أن لمصل أى نوع من الثعابين خاصية إبطال سموم أنواع الثعابين الأخرى إلى أن أثبتت التجارب أن لكل مصل صفة لا يشاركه فيها غيره . فصل الكوبرا

مثلاً لا يبق من سم الأفاعى . وكان لهذه النتائج العظيمة خطرها فى كشف الستار عن وسائل العلاج الحديثة .

والطريقة المتبعة فى صناعة الأمصال تجرى كالآتى :

يؤتى بالسم فيمخض ويرشح ويوضع فى أوان زجاجية منبسطة داخل إناء التجفيف فى درجة حرارة ٣٧ ثم تذاب كميات كبيرة من السم فى الجلسرين على شرط أن يكون مجففاً ومعقماً ويحفظ فى درجة حرارة ٣٧ حتى يتخلص من البكتريا ويضعف فى الوقت نفسه السم دون أن يفقد خواصه السمية وبذا يصبح صالحاً للاستعمال . أما إذا حقن به مباشرة فقد يضر بالحيوان ضرراً بليغاً وتستخدم لهذا الغرض الخيل والبغال لأنها تعطى كميات كبيرة من المصل . فتحقن تدريجياً وفى فترات متفاوتة بكميات محدودة من هذا السم مع ملاحظة حالتها الصحية أثناء ذلك وبتكرار هذه العملية تتكون فى دم الحيوان الأجسام المناعة . فيؤخذ جزء من دمه ويترك حتى يتجمد وينفصل عنه المصل .

وقد عفى الناس منذ القدم بوصف الأعراض التى تظهر على الإنسان إذا عضه ثعبان . وقد طابقت هذه الأوصاف التجارب العملية التى أجريت أخيراً على سموم الثعابين .

وتختلف أعراض التسمم الناشئة عن عضه الثعبان عن الأعراض الناشئة عن لدغ الأفاعى .

فعضة الثعبان لا تحدث تغييراً موضعياً طفيفاً فيكون الألم يسيراً وبعد قليل يبدأ شعور بعدم الراحة . ويكون النبض فى مبدأ الأمر سريعاً ثم يأخذ فى البطء . ويلى ذلك ضعف فى السيقان ثم يدب الشلل فى الأعضاء . أما التنفس فيبدأ ببطء ثم يسرع . ثم يغتمر المصاب فى غيبوبة وعندما يشل مركز التنفس تحدث الوفاة . ويتم ذلك بعد بضع ساعات أما عضه الأفعى فتحدث ألماً موضعياً شديداً وتسبب توسيعات فى الأغشية ورشحا دمويًا مصلياً . ثم تظهر الأعراض العامة للتسمم كالقيء . والإسهال وإدماء الأنسجة المخاطية . والأمل فى الشفاء من عضه الأفعى أكبر منه فى شفاء عضه الثعبان .

ويختلف التسمم من حيث سرعة ظهور أعراضه وسيره ونتيجته باختلاف كمية السم ونوعه وموضع اللدغة ومبلغ سريان السم فى الدم والجلد والغشاء المخاطى السليمان لا يمتصان السم تقريباً . ولا يؤثر سم الناصر إذا أخذ عن طريق الجهاز الهضمى . أما سم الأفعى فيحدث التهاباً فى الغشاء المخاطى للمعدة وزفا دمويًا فى

قناة الجهاز الهضمي . ويقتصر أثر البخاخ على العين في الألم المبرح والالتهاب والعمى الجزئي أو الكلى وقد يحدث أن يرتد البصر إلى العين بضع مرات خلال شهر أو شهرين ثم يفقد الإبصار في غائب الأحيان إلى الأبد . ويتكون على القرنة عادة طبقة بيضاء غير شفافة . . .

وكان الناس ولا يزالون يفزعون اسماع خطر انثعابين ويهربون جانبها ويتحاذون بأخبار لدغتها الفتالة . ولعل هذا كذب البعث لهم على محاربتها ولافتتان في اتقاء شرها . وهداهم بحثهم وتفكيرهم إلى اكتشاف الترياق الذي فيه شفاء لهم من لدغتها ومن كثير من العلل والأمراض كالأشمل والصرع والجرب وغير ذلك . . . وأول من اكتشف الترياق طيب من جزيرة كريت كان يعمل في حاشية القيصر « اندروماكوس » فكان لكشفه أثر عظيم في ذلك العهد . ويستخلص الترياق من الأفاعى بعد طبخه بجميع أجزائها ومحتوياتها من الأمعاء والكبد والرأس أيضاً بغدده السامة . وانهضى زمن ليس بالقليل قبل أن تزول أهمية هذا الترياق . . على أنه لم يبق منه غير دهن الثعابين تستعمله الفانيات لإزالة النمش من أجسامهن وليكسب بشرتهن نعومة وطراوة . .

وكان الرومان في حالة الإصابة بلدغة الثعبان ينصحون بتعاطي
 النبيذ مضافا إليه الكهون والفلفل والثوم . كما كان البراهمة
 يشيرون باستعمال « حجر الثعبان » الذي أثبتت الأبحاث الحديثة
 أنه كان يصنع من العجم الحيواني فيمتص السم . ويعتقد أهالي
 البرازيل أنه يكفي لشواء المصاب أن توضع على الجرح ضفدعة حية
 بعد شق بطبها كما أنهم يتقنون مهاجمة الثعابين لهم بالنوم على جلد
 الأيل اعتقاداً منهم بأنها لا تقربها لأنها من أعدائها . . ويستعين
 أهل مصر على الإمتشاء من لدغ الثعبان بأن يوضع على موضع
 اللدغة الحمام بعد ذبحه مباشرة وتنف ريشه بسرعة قبل أن تزول
 من جسمه حرارة الحية . .

أما طريقة العلاج الحديث فينبغى أن تسير كما يأتي :
 يبدأ أولاً بمحاولة وقف انتشار السم في الجسم وحصره في
 منطقة الجرح لمنع وصوله إلى القلب وذلك بأن يربط الجزء الأعلى
 مكان الإصابة ربطاً شديداً محكماً بحيث يتعطل سير الدم ويحسن
 أيضاً أن يعمل رباط آخر احتياطي في مكان أعلى من مكان
 الرباط الأول . وبلى ذلك العمل على إخراج السم من الدم بأن
 يشرط مكان الجرح لتسيل منه أكبر كمية ممكنة من الدم . فإذا

لم يتيسر إجراء التشريط فليعمد المرء إلى إمتصاص الدم بأنهم بعد تيقنه من خلوتجوييف الفم من الجروح أو الخدوش . ويجب أن يوضع بعدئذ على الجرح قليل من ماء الكلور أو محلول برمنجانات البوناسيوم المركز للقضاء على عناصر السم . وفي حالة تسرب السم إلى أجزاء الجسم الداخلية تجب المبادرة إلى إعطائه المصل الخاص . ويحسن أن يتناول المصاب شراباً مدقناً كالشاي أو كونيأك . وأخيراً ينبغي إراحة المصاب ولفه بالأغطية لتدفئته . ولقد عرف الإنسان فيما عرف أثر السم وفتكه فتخذ منه سلاحاً حفيماً دينياً للخلاص من أعدائه والقضاء عليهم .. فهو عدة الجبان الخائر واللئيم الماكر الذي لا يجروء على مواجهة غريمه وجهاً لوجه وسلاحاً بسلاح . فكم من جرائم اقترفت وعروش تقوضت وتيجان طوحت وأمراء وعظماء قضاوا وكان السم هو السلاح . . وعرف الإنسان السموم أول ما عرف في النباتات . وأول ما أفاد منها في العلاج ثم كشف عن ناحية الشرف فيها فستخدمها في القتل والانتقام... وفي التاريخ القديم قصص وأساطير يفهم منها أن السم عرف في المعابد واستعمل في إزهاق الأرواح فكان يوضع في الشراب ويدس في الطعام وتطلى به أبواب العرائس فيتلقهن

الموت بين طياتها . . وانتشر استعمال السم في الشرق ومنه انتقل إلى الغرب فتسرب فيه إلى القصور والحدود ومن أغرب ما يروى في ذلك أن «فردريك الثاني» كان يجمع في بلاطه الفتيات الحسان والغيد القاننات فيعودهن تعاطى السم بالتدريج حتى تتسم به أجسامهن الجميلة فلا يؤثر فيها شره فاذا تنكر العاهل العظيم لأحد أمرائه أو حقه على أحد أصدقائه أوحى إلى واحدة من فتيات العاتكات بالتودد إليه وإيقاعه في شرائك حبها وأغرائه بالزواج منها فما يكاد المسكين ينعم بحرارة جسدها حتى يلقي منيته في أحضانها . . ولا أفهم سر هذه الميتة العجيبة ولا أجد تعليلا لهذا الضرب من التسمم .

على أن الإنسان قد اقتن في استعمال السم وتفتق ذهنه الجبار عن طرق غريبة لإخفائه فاستخدم في ذلك الدبابيس والإبر المخوفة والجوارب والروائح العطرية وغيرها . كما مزجه بالسكر والنبيد فاستطاع بذلك إزالة ما في مذاقه من مرارة . .

وأفل القمر فأقفل رفاعة باب السمر إلى الليلة التالية .

مأساة في قصر

ولما أشرق القمر في الليلة الرابعة اتخذ رفاة مكانه من القوم
ايصل ما انتقطع من حديثه وقال :

حافظ الشيخ عمران على زيارتنا أنا وصديقي الدكتور موسى
حتى أصبحنا نستوحش لغيبته ونسعى للقاءه . وكان صاحبي لا يفت
يمده من حين لآخر ببعض المال كما كان هو لا يألو جهداً في إهدائه
من آن لأن بعض ما يهوى من أنواع الزواحف النادرة وأهداه
فيما أهداه مرة ناشرأ صغيراً .

سر صديقي بهذا الناشر وسماه « بوطو »

فوجيء صديقي بفقد الشيخ عمران كما فوجيء بفقد عزيز آخر
إذ انسل ثعبانه الصغير « بوطو » من مكانه وضاع كل بحث عنه
سدى .. وهكذا فقد الهدية ومهديها .

تسلل « بوطو » الصغير من سور المدرسة إلى حديقة مجاورة
وراح يدب في جنباتها ويسعى بين أشجارها . وكانت هذه
الحلة مثابة لأنواع شتى من الحيوان والطيور والحشرات نفضت

عنها طلائع الربيع غبار الخول فنشطت بعد جهود الشتاء وهبت
تستقبل الفصل الجديد . فإذا ما لاح الفجر وبدا نوره الرطيب
رددت الأفنان تغريد الأطيار وملأ البشر والبهجة أرجاء الحديقة
وإذا سجد الليل وانتشر الظلام وهذأت الأنفاس وسادت الوحشة
والسكون تجوب نقيق الضفادع ونعيق البوم فكانت نذراً
ترعد لها أفرانخ الطير في اعشاشها وصغار الحيوان والزواحف في
إجحارها لا تدري اتدهمها العوادي بيئاتا وهي نائمة أم تنتظرها إلى
الصباح وهي سارية ..

واحس «بوطو» رعدة تتمشى في جسده فأنحاز إلى جانب
مستور وجعل يرقب بعين حائرة مايجرى حوله فراحه انقضاء اليوم
كالصاعقة على تلك الصغار المسكينة تهدم أوكارها وتمزق أحشاءها
ورأى اعمامه الأفاعى زاحفة كالسيل تطارد فرائسها في جوف
الليل وفلول الجرذان تسابق الريح في جريها تتلمس اللبأ من
عدوها فأيقن «بوطو» المسكين بالشر الذي يهدده والموت الذي
يتوعدده فاعتصم بقطعة من الحجر وجد تحتها جحراً صغيراً كمن
فيه حتى تهدأ العاصفة . وطال كونه ولم يكن قد طعم منذ ليال
وألح عليه الجوع فدفعه إلى المخاطرة فخرج يتلمس ما يسد به الرمق

وهو حذر جد الحذر ومرت بجانبه « سحلية » مسرعة روعته لأول وهلة إذ ظنها عدواً فاتكا وجعل يتتبعها بعينيه وما هي إلا طرفة العين وانتباهتها حتى بصرت بالسحلية في فم ثعبان غيره يتلعها وبعد قليل أبصر ضفدعا كبيراً فتقدم نحوه وحلق فيه فجمد الضفدع في مكانه فانقض عليه وعضه بنابه عضه تركته صريعاً وحاول ابتلاعه ولكن أنى لفعة الدقيق أن يتسع لذلك الضفدع الكبير فارتد عنه يائساً محزوناً وسار يفتش عن فريسة أخرى ثلاثه فاهتدى أخيراً إلى غدير صغير مليء بصغار الضفادع وقد وشت حواشيه أعشاب تؤى كثيراً من السحالي فاتخذ من هذا الغدير مستقراً ومقاماً وطاب له العيش فيه فظل عدة أشهر لا يفارقه .

قوى « بوطو » في هذا الغدير واشتد ومرن على الطراد والصيد وهاجه الطمع إلى البحث عن كنز آخر أغنى وأوفر فخرج يتهادى وقد اشرع عنقه زهواً وانتفخت أوداجه تهباً وامتلأ رأسه غروراً ولم يجرح كبريائه إلا أن رأى جماعة من الصقور تحوم في الجو ثم تهوى فجأة على ثعبان أقوى منه عضلاً وأشد بأساً فتركت صريعاً ومزقته إرباً وأسرع جهده في الفرار إلى منجى لا تدركه فيه عين الصقر ولكن الخطر في هذه المرة كان يهدده من فوق رأسه

ومن تحته فلم يكذب يندس سواد جسمه في مخبئه حتى أدركه «ابن عرس» فقتل بذنبه وجعلا يتجا ذبانه فأب ابن عرس بجزء من الذنب ونجا الناشر . . واعتكف في ملجئه حيناً يعانى آلام مصابه حتى اندمل جرحه وغادر الجحر . . وما كان أشد عجبه حين خرج إلى الخلاء فإذا هو لا يكاد يرى شيئاً مما حوله نفيل إليه أن طول ثوائه في الجحر قد أعماه ، ولم يكن عى ما أصابه ولكنها غشاوة عارضة من كدورة سائل عكر ينضحه جسمه تحت قشرة جلدية شفاقة هي (ثوبه) أو سلخه الذى يبدله من حين إلى حين ويفرز هذا السائل عادة إذا آن أن ينسلخ الثعبان من ثوبه لتسهيل به عملية الانسلاخ وفي وسط الغشوة التى أحاطت به طفق يستخدم لسانه يتحسس به الطريق حتى اصطدم بجذع نخلة فجعل يحتمك بالجذع إلى أن تمزق الغشاء عن شفتيه ووضح له سبيل التخلص منه فاستمر يعالجه حتى سلخه عنه وتركه مقلوباً .

وكان قد انهكه هذا المجهود فاستكن بضعة أيام استجم فيها وارتد بصيراً وتفتحت شهيته وعاوده النشاط للسعى فى طلب القوت من جديد وبقى يغدو ويروح يأتيه رزقه رغداً وقد غفأت عنه الأحداث ونامت عنه عيون الأعداء ووجد فى هذه الجنة

أمنًا ودعة وجريا على الطبيعة الكامنة في جنسه لم يحاول الانتقال عن هذه البقعة الهادئة .

ولكن الليالى مهما سالت لا بد وان توقد نار الحرب فبعد سنوات خمس مرت كحلم الحالم فوجيء « بوطو » فى إحدى الليالى بجلبة صارخة وأصوات مزعجة فقد غزا الحديقة جيش من الخنازير المسلحة بخراطيم كالمعاول وأنياب كالمناجل وجعلت تعيث فيها تقلب أرضها كأنها كأنها محراث الفلاح فأخرجت دفائنها وفزعت أوامنها وأثارت كوامنها وما ظفرت بزاحف إلا التهمته ولا حيوان إلا التقمته فوق الاضطراب فى صفوف تلك الحيوانات الصغيرة الضعيفة أمام قوة هذا العدو الجبار فهرعت الضفادع والجردان والسحالي والأفاعى تتلمس النجاة وقد سدت عليها المسالك . فلما استيأست وقفت بعض الطوائف تدفع عن نفسها وكانت النواشير بالطبع أفتكها سلاحا وأحدّها نابا فكرت كرة المستميت وراحت تعمل فى الخنازير أنيابها وتنفض فيها سمها ولكنها كانت كرة خاسرة فماذا عسى أن تفعل النيوب أو تؤثر السموم فى تلك الدروع المنيعه من شحم الخنزير . تثلم السلاح ونفذت الذخيرة وجل العدو الغاشم جولة وحشية قاسية أوسع فيها الأفاعى تقتيلا وتمزيقا

« وبوطو » المسكين يشهد مصارع بنى جنسه على هذا النحو الشنيع فجمد في مكانه ينتظر مصرعه لولا معجزة أغفلت عيون الغزاة عنه ولم يكد الصبح يتنفس والخنازير تترحل حتى فارق « بوطو » جنته التي انقلبت جحيمًا وانقلت إلى القرية كالسهم المارق وهو لا يؤمن بالنجاة ولكن انتظار المصراع المشكوك فيه بين جدران البيوت خير من الموت المحقق في ظلال الحديقة .

ودخل القرية على حين غرة من أهلها فألقى أحد الأراقم^(١) البيتية النامية وبين فيه ناشر قد غيب أكثر من ثلثيه في جوف الأرقم فصاوده القلق وعلم أن حظه العاثر قد فرّبه من قضاء إلى قضاء وبداله أن يدهم الأرقم وهو مشغول بفريسته فيكون قد أصاب غرضين بسهم الانتقام لزميله والمخلص من عدوه وأقبل على العدو الجديد في شيء من الحذر يسدد إليه أنيابه فتصيبه تارة وتطيش أخرى ولكن لم تجده تلك الحيلة نفعاً ولم يحدث السم القليل في جسم العدو أثراً فأيقن أنه لن يستشعر في جوار هذه الأراقم راحة ولا أمناً وأثر أن يفر إلى حقول القطن القريبة من القرية ولما اطمأن فيها إلى أحد الوكور تحت ظلال شجيرات

النامية مضى يرقب في سكون ما يجري حوله فبصر بحشرة
(المنتس) ^(١) الخضراء وهي تقضم بفمها إحدى ديدان القطن
ورأى (منتس) أخرى وقد وقفت على أرجلها الخلفية ساكنة
لا تتحرك ورفعت رجاها الأماميتين فوق رأسها كأنها تتعبد
وتضرع إلى الله ولعل هذا ما حدا بالعامية إلى تسميتها (فرس
النبي) ولم يطل وقوف هذه الحشرة طويلا على هذه الحال فقد
هاجمتها (سحلية) وظلت تحاورها إلى أن داهمتها أخيراً واهتمتها
ولكن السحلية لاقت حتفها عند ما فاجأها (أبو السيور)
الثعبان العريبد وخنقها وراح يبتلعها في بطنه فخرج اليه (بوطو)
وعضه فللفظ (أبو السيور) فريسته وراح يحاور الناشر في سرعة
ويغافله ثم يهوى عليه عضاً إلى أن أنخنه بالجراح ففر من أمام
عدوه وهكذا ظل المسكين يستشفى من داء بداء ويخرج من بلاء
إلى بلاء فقد خرج في الليلة التالية يفتش عن فريسة تدفع عنه
غائلة الجوع فلاح له على بعد شبح ظنه في البداية فأراً ولم يتوجس
منه شراً فتحفز للقضاء عليه وما أعجل ما تبين أن عينه قد كذبت
إذ وجد إلى جانب الفريسة الموهومة ثعباناً قد فرسته فحدثته

Nantis religiosa (١)

نفسه بالثأر لصاحبه واستجمع شجاعته وهجم عليها فتقبضت فإذا هي كرة من الشوك لا يجد إلى داخلها منفذاً وآله وخز الشوك فتراجع قليلاً ليستعد لهجمة أخرى وانقرطت الكرة الشائكة وعادت في هدوء إلى فريستها الأولى وأدرك « بوطو » أنه « القنفذ » العدو العنيد فجعل يخامره لعله يصادف منه مقتلاً وأحس القنفذ الشر من ضيفه فتأهب لمقابلة الشر بالشر وليعرف صاحبه أن لحمه عليه مر لولا أن قطع جبل المعركة مرور بعض السابلة فلما سمع الخصمان وقع أقدامهم توارى القنفذ في أعشاب الشاطئ وفر « بوطو » إلى نخلة باسقة كانت على كنب فتسلقها واتخذ من أليافها وقنواتها وكرأ ومن أفراخ اليمام الذي أقام عايشاً أعشاشه غذاء وظل كذلك هادئاً هائثاً حتى نضج البلح واعتلى النخلة بلاح فبدأ يضرب القنوان بعصاه ليسقط الرطب فانكمش « بوطو » بين العراجين وأتم الرجل عمله وأدلاه والثعبان كامن في ثناياه وكان من المنتظرين تحت النخلة فتاة ناضجة أضفت عليها نعمة العيش جمالا وجلالا هي ابنة صاحب المزرعة ومالك النخيل أعجبها منظر التمر في عراجينه فمدت يدها إلى باحة منه بل إلى القضاء العاجل المستور فيه فأحست وخزة ظنتها من إحدى إبر

النخل ولم تحسبها من ناب الصل وأحست أن الدنيا قد اظلمت في عينيها فتمتمت بمض كلمات خرت بعدها صريخة ولم تتسع الفرصة لإسعافها من سم لا تجدى فيه رقية راق ولا حيلة آس فحملوها إلى البيت تشيعها الحشرات وفي هذه الغفلة هرب المارد الأثيم فلما عادوا يفتشون عنه لم يجدوا إلا آثار زحفه إلى الغاب الملتف على شاطئ التربة وقد غيب نفسه فيه فلم يهتد أحد إليه .

طاب لبوطو المقام في هذه الخلوة التي لاتصيبها عين ولا تطؤها قدم وظن أنه في محله فريد وحيد ينعم بخيراتها دون شريك حتى كان يوم من أيام الربيع فانبعث في صباحه من جوانب الغاب ريح كريهة ملأت جوه ووصلت إلى أنف الثعبان فعرف فيها ريح أنثى من نوعه وتنبت فيه الفريزة فجابها بريح مثلها وجعلا يتدانيان على هدى ما يبعثان من الريح حتى تلاقيا ونم التزواج وراح يضرب في الغاب جذلان فرحا وهو أشد ما يكون نشاطاً وتعاقبت الأيام وانقضى الربيع ومن بعده الصيف وبدأ الخريف ينشر ألويته فأدرك « بوطو » فتور وعافت نفسه الطعام وعف راغماً عن مطاردة القوارض واغتيال الطيور واستكان حتى استخفت به أهون الطيور شأنها فما كانت تخشاه (أم فسية)

الضعيفة وهي تتردد على جسمه طائرة هابطة تنقر (الطمليات)
العالقة بجلده رغم دقة احساس هذا الجلد . عزف بوطو عن كل
ذلك ولم تعد به حاجة لعير الدفء فازدوى بين هشيم الغاب
وأعواده مستغنياً عما ادخر في جسمه من دهن عن الطعام
والشراب قائماً بالقليل من أكسجين الهواء في تنفسه البطيء
وعكف على هذه الحال حتى تقلص الشتاء وعادت شمس الربيع
ترسل اليه أشعتها الدافئة من ثنايا الغاب توقظه وتنشطه فأبعث
حيّاً يجد في السعى لتعويض ما فقدته أيام الركود .

مضت فترة ووطو آمن في غابه حتى آن أوان قطع الغاب
وبدأ العمال يعملون فيه القووس ووراءهم قطيع من الغنم يرعى
مكان الغصب . شعر بوطو بهذه الضجة فقام يتخبط بين العاف
النبات وكأما اشتد كلب الغنم ربح هذا العدو وسمع حفيف
جسمه بأوراق الغاب الجافة فوقف في وجه الغنم يذودها عن مكن
الخطر وهو ينبح ويتلفت من الحذر ورأى الثعبان سلامته في
النزوح عن مكانه وما كاد يخرج إلى الطريق حتى بصر به
الكلب فأراد أن يحول بينه وبين الهرب فواصل نباحه لينبه
الراعى أو العمال اليه وضيق الطريق على الثعبان دون أن

يشتبك معه وهو لا يجمل خطر هذا الاشتباك عليه وضاق الثعبان
بمأورة الكلب فعاجبه بعضة قصت عليه قبل أن يالحق به المدد
وتنبه الراعى متأخراً فلما أقبل ألنى كلبه ميتاً فذهبت نفسه
حسرات على صاحبه الوفى الأمين وأراد الانتقام له من عدوه
المبين ولكن الثعبان كان قد نجا إلى جحر قريب بدت آثار
زحفه عند بابه فوق رقيباً عليه وبعث بعامل من قاطعى الغاب
يستعدى على الثعبان حاوى القرية الشيخ أبالمكارم فجاء مهزولاً
ويده عصاً فى طرفها قطعة من نسيج الصوف فطلب إلى أحد
العمال أن ينبس الجحر بفأسه وهو قائم يترصد فخرج بوطو هائجاً
وقد فرفاه وحدد لابه ليغمد فى أول شبح يقابله فأداف إليه
الحاوى قطعة الصوف فعضا عضه لمغيظ واجتذبتها الشيخ من
فيه جذبة قوية خرجت ببعض انيايه وثنى بالعصا قتبها فوق
عنقه وقبض عليه من موضع العصا قبضة محكمة ثم عاد يلقمه قطعة
الصوف وينزعها حتى فض فاه من جميع النيوب وكان فى القرية
شاب من ذوى اليسار قد هوى الزواحف وأعد لها فى حديقة
قصره معقلاً فسيحاً وفر لها فيه مظاهر بيتها وكان أبوالمكارم
يزوده بما تصل إليه يده من مختلف أنواعها فلما ظهر بالناشر

الجديد حملاه اليه فأجزل عطاءه وصرب يوطو وضحه إلى مجموعته .
وكان صاحبنا شاباً في ميعة الصبا لم يعز الحلقه الثالثة توفي
عنه أبوه وهو لم يزل في المهد صديقاً وخلف له ثروة ضخمة فكفلته
أمه وكانت سيدة رقيقة القلب شديدة العطف ففالت في حذبها
عليه ورقمها به ونشأته نشأة مدللة مائعة لا تصلح له خطأ ولا تقوم
له عوجا ولا تنهيه عن هفوة ولا تذوده عن جريرة فشب مستهتراً
مريض النفس فطير الرأي فاطر العزم وانطبع على غرار أمثاله من
أبناء المترفين الذين أتلفهم سقم الوراثة أو ضعف التربية فلم يقبل
على طالب علم ولم يحاول أن يقوم بعمل وأحاط به عصبية من أقران
السوء وشياطين الإنس الذين يهبطون على كل وارث من أبناء
الأثرياء ويعيشون عالة عليه فزينوا له كل منكر وأحسنوا له كل
قبيح ومهدوا له سبل الغواية فنهز معهم بدلوهم واندفع في تيارهم
وراح يبذر النصار يمنة ويسرة وفطنت والدته إلى أنه سائر إلى
إفلاس محتوم وتلف محقق فشرعت بعد طول التفريط وفوات
الفرصة تعظه وتنذره فلم تجد العظام ولم تغن النذر فاضطرت
إلى الحجر عليه والحد من إسرافه ولكن الداء كان قد استشرى
وتمكنت العلة من نفسه فقبعم في القصر يعيش بشخصيتين

متباينتين . يخرج للناس نهائراً في مسوح الزهبان ولباس العالمين
يخادعهم برعاية أفاعيه تارة وبالعكوف على الصلاة والتسبيح تارة
أخرى فأثرت الخديعة فيهم وانطلى الزور عليهم وكان بعض السذج
منهم يترددون عليه متيمين ويفضون إليه بدخائل نفوسهم
وأسرار بيوتهم طائعين وكان إذا أسدل الليل عليه حجاباه أعلن
أنه آوى إلى خلوة التعبد وقد خلا في الحقيقة إلى شيطانه ثم انتزع
ثوب النسك المستعار وأرسل نفسه على سجيتهافعقد مجلس الخمر
والخدرات بعد أن يكون قد نصب فخاخه ومد شراكه ليتصيد
فريسة يقضى بقية الليل في أحضانها حتى إذا لاحت تباشير
الفجر سرح الذبيحة قبل أن يستيقظ الحى فلا يفصح له سر
ولا يهتك عنه ستر .

وكثيراً ما كان يتردد على « غريب بك » الشيخ دردير
فقيه القرية وماأذونها ليتلو في القصر ما تيسر من آتى الذكر
الحكيم ويتدارس مع صاحبه بعض أحكام الدين بقدر ما تسمح
له بسائط علمه وكان « غريب بك » حفيابه يهش لقائه ويبالغ
في إكرامه ويظهر الارتياح لمجلسه والاعتباط بمحدثه والإعجاب
بقراءته لأنه يرى فيه خير مذياع ينشر على الملأ فضائله وما فنى

الفقيه يفاخر بصلته بغريب بك ويتمدح بنسكه وورعه وتواضعه وكرمه حتى أبرزه للناس ولياً من الصالحين وقطباً من الواصلين وكان لا بد أن تظفر بالنصيب الأوفر من هذه الإذاعة «عالية» امرأة دردير وهي بدوية نصف لم تذهب السنون بروعة جمالها وحسنها المطبوع ولم يذبل نضارة عودها حمل ولا وضع ولم يلوح صفاء بشرتها نصب ولا كد فقد كانت مهنة زوجها توفر لها العيش الهنيء وكانت عالية كريمة مرحة هوت إليها أفئدة من نساء الحى وفتيانها فلم تقفر دارها من واحدة تتحمل إليها أكلة شهية أو تحمل عنها عبثاً من خدمة الدار ووجدت في ذلك مسرة وسلوى فلم تشك في حياتها هما وهبطت عليها في السنوات الأخيرة خيرات القصر التي كان يأتي بها زوجها دون أن تنقل إليها قدماً أو تبسط لها كفاً فزرع ذلك في قلبها للقصر حباً ووداً فوق ما وطده فيه حديث الشيخ من ثقة وتقدير.

وحدث في أصيل أحد الأيام أن دعى الشيخ لحفلة عرس يتولى صيغة العقد فيها وبحث عن بعض دفاتره فلم يجدها فحمل على عالية التي لا ذنب لها في فقدتها ونشأت بينهما جفوة لم تتعودها وخرج الشيخ مغضباً فشق الأمر عليها ولم تجد أمامها خيراً من

« غريب بك » تشكو إليه قسوة زوجها فolt وجهها شطر قصره فما أن استقرت عليها عينه حتى وقعت في قلبه وحسبها فريسة روضة ساقها الشيطان إليه وشرعت تقص عليه قصتها وهو يقلب طرفه في خبث ودهاء في جمالها فلما فرغت من الشكوى راح يهدى من حنقها على الشيخ بحلو الكلام ويمنيها بما يضمن لها عدم عودة زوجها إلى إغضايبها وكان لا يفوته في حديثه اطراء خلقها والثناء على زوجها . ثم أمر بأن تعد لها غرفة توفر لها فيها أسباب الراحة حتى يرسل في طلب الزوج . أوت عالية إلى غرفة فاخرة الأثاث غنية الرياش لم تر أو تسمع بمثلها من قبل فشغلت بهذا المظهر الباهر حينما تجيل البصر في نواحي الغرفة تارة وتمسح بيدها على فرشها تارة أخرى وهي تشعر كأنها في حلم لذيذ وبدا لها أن تضطجع هنية على السرير المقام فيها بين حشايا الحرير وملاحف الديباج وراحت تتمرغ فيه وهي آمنة . وذهلت عن نفسها فأخذها النوم ولم تنتبه إلا بعد هجمة من الليل على يد غريبة تمسح على وجهها وتمر على شعرها ففتحت عينيها على شبح ارتاعت له ثم تبينته فإذا هو غريب بك يبتسم لها ويلقى بعض كلمات الغزل في أذنها وهم بأن يدنى شفثيه من جبينها فانتفضت .

مذعورة محنقة من هذه المفاجأة الغريبة فلم يكن ليخطر ببالها أن
 ولى الله الناسك العابد ينقلب فاجراً أثماً أو أن « غريباً » الثرى
 الوجيه الذى يستطيع أن يمتلك بجاهه وماله أغنى وأجمل ربات
 الخدور ينحدر إلى مهبط هذه الريفية الفقيرة التى لا تشعر بينها
 وبين نفسها بشيء من الفتنة أو أن هذا الشريف الكريم ينزل
 عن شرفه ويتخلى عن كرمه فيهلك حرمة جاره ويمزق عرض
 ضيفه وبدأت تدفعه وتنهيه في خوف ورهبة فلم يزد ذلك إلا غوراً
 وتماذياً ، ولما أعيته الملاينة أراد أن يأخذها بشيء من الشدة فلم
 يجد بداً من أن تقابل شدته بمثلها فصعته صفة قاسية ودفعته
 دفعة قوية وانطلقت من باب الغرفة انطلاق القذيفة ميممة باب
 القصر فأخطأت الطريق ووقعت في حظيرة الزواحف وقد
 خدعت في زجاجها فخطمته ، وكان الوحش الضارى يركض في
 أثرها ولحق بها في الحظيرة فزرعت الأفاعى لهذه الجليلة الطارئة
 وكانت أنياب بوطو قد تجددت فأنشبت في ساق الرجل فسقط
 السقطة الأبدية وطلب وهو في حشيرة الموت إلى عالية أن تغفر
 له جريمته وأن تنجوا بنفسها من أفواه الموت الفاعرة في جنبات
 الحظيرة ثم أسلم الروح وخرجت عالية بعد أن شهدت مصرع

الفتى وهى تحمد الله الذى وفر عرضها ونجى حياتها وأيقنت أنه لا يغفل لحظة عن الظالمين وإنما يمهلهم إلى حين .

ولما أسفر الصبح ودبت الحياة فى القصر ونزل البستانيون إلى عملهم أنفوا أفاعى سارية فتطهروا والمخلعت قلوبهم وانطلقوا إلى الوكر فهلم أن رأوا بعض ألواحه قد تحطمت وكل أفاعيه قد تسربت ووجدوا سيدهم ماقى حيث اقى حتفه فشدهم هذا المشهد الرهيب الذى عمى عليهم فلم يفقهوا من أمره شيئاً واهالت عبرات المولدين وتمالت صيحات الناديين وأخذت منه الصيحة فدار بها القصر ومادت بها الأرض وطارت إلى مكان وحيدها وهى تتعثر وتتكفأ حتى انكفأت على جثته تقلبها وما تملك غير دمع مسفوح وقاب مجروح لا يغنيانها فى رد القضاء فتبلا .

وكان الخدم بعد مصرع سيدهم وتحجر أفاعيه يتوجسون فى كل موطن قدم حتفا مميّتا فاستقدموا الشيخ أبى المكارم يفتش لهم عن تلك الحيات وينقذهم منها فعكف بضعة أيام على تقفيها حتى أتى على كل ما كان لا نذآ منها بالحديقة ، أما التى تخطت الأسوار وتفرقت فى الحقل فلم يستطيع لها طلبا .

وأفل القمر فأقلل رفاعة باب السمر إلى الليلة التالية . . .

موكب الرفاعية

ولما أشرق القمر في الليلة الخامسة اتخذ رفاعة مكانه من القوم ليصل ما انقطع من حديثه وقال :-

خرج الشيخ أبو المكارم وقد امتلأت جيبته بما تصيد من أفاعى القصر ومن بينها « بوطو »

وكان ذلك اليوم يوم مولد السيد الرفاعى وهو يوم مشهود له جلاله وله خطره عند أتباعه يتخذونه عيداً يحفلون له أينما كانوا ويحيون فيه ذكرى إمامهم الأكبر وهو بزعمهم صاحب كرامات قد سخرت له الأفاعى فى حياته ولم ينقطع سلطانه عليها بعد موته فما برحت أسرابها دائبة القصد إلى ضريحه فى سفح جبل المقطم تتمسح به وتطوف حوله وما برح صاحب التصريف فى شئونها تأتمر بأمره وتنتهى بنهيه والحكم الفصل بينها وبين خصومها يسجنها ويعذبها إذا جنت على أحد بغير جريرة ويصب عذابه على من يأخذها بغير جريمة .

وما عرف التاريخ إلا أن سيدى أحمد بن على بن الحسين
الرفاعى الذى ينسب الرفاعيون نسبهم إليه نشأ ومات فى قرية
(أم عبيدة) بأرض البطائح بالعراق وقد دفن بها ولم يخرج منها.
وكان رحمه الله فقيهاً من أعلام فقهاء الشافعية تخرج عليه عدد
وفير من العلماء والمتصوفين وكان زاهداً عابداً رضى الأخلاق
مشهوداً له بالحلم والعطف شمل عطفه الانسان والحيوان . وقد
بلغ من حلمه أنه لم يجز على سيئة بسيئة وكان حساده يرسلون
إليه رسائل حافلة بأقذع أنواع السباب والانتقاص ويرمونه فيها
بالإلحاد والزندقة والابتداع والدجل فإذا فض رسالة أحدهم
وقراها ابتسم وقال « صدق فيما قال جزاه الله عنى خيراً » . حتى
إذا يئسوا من اغضابه سعوا إليه منيبين تائبين . . . وقد أتى مرة
صبية يتشاجرون فأصلح بينهم وسأل أحدهم ابن من أنت . فقل
الصبي وما فضولك هذا . فضحك وقال جزيت خيراً فقد
أدبتنى يا بنى .

وكان من حذبه على الناس أنه يخرج فيحتطب ويعود
حاملاً الحطب فوق رأسه فيوزعه بين الأرامل والنساء كين
والمرضى والعميان والشيوخ . ومن عطفه على الحيوان أن هرة

نامت على طرف قميصه وأذنت الصلاة فلم يشأ أن يزعمها وقص
طرف الثوب ثم عاد بعد أن تركته الهرة نفاطه . . ووجد مرة
كلباً أجرب يطارده الصبية حتى أخرجه إلى مكان بعيد فخرج
وراءه وضرب عليه مظلة وكان يحمل إليه في كل يوم الطعام
والشراب ويحت عنه الجرب ويطليه بالقار حتى رىء ونبت
شعره فحمل إليه ماء ساخناً فغسله وأعاده إلى القرية . وكذلك
أقام الرفاعى من ثمانئة عام دايلاً على أثر الدين فى تهذيب
النفوس وإصلاحها وطبعها على الخير واتعارها الشفقة على
الإنسان والرفق بالحيوان فنيس الرفق بالحيوان — كما بدعى
المدعون — سنة أشرقت شمسها من الغرب ولم يصل سماعها
إلى الشرق إلا فى القرن العشرين .

والذى أسمى على الرفاعيين فى مصر أمرهم وجود الشيخ
على ابن شباك الذى شهر بالرفاعى فيها وهو من أتباع سيدى
أحمد فحسبوه هو وهم على هذا الزعم يؤمنون ضريحه ويحتفلون
بذكرى مولده فيخرجون بطبولهم الدقاقة وبنفودهم الخفاقة
ويشاركهم فى مهرجاناتهم العظيمة عدد غير قليل من أبناء الطوائف
الصوفية وأصحاب الطرائق الأخرى فإذا رأيتهم وقد ملأت

الأرض جموعهم الصاخبة في أزيائهم المتضاربة ونجمت من رؤوسهم عمام البيومية الصفراء والأحذية الحمراء والنقشبندية الخضراء والرفاعية السوداء حسبهم نباتاً مختلفاً ألوانه متباينة أزهاره ولا تكاد تستقيم في الأسماع أناشيدهم الدينية وأغانهم الصوفية بين جلبة التهليل والتكبير وأنغام الزمر والصفير وبين قرع الطبول ونقر الدفوف وقد تعالت في الجو إلى جانب هذه الأصوات الدأوية سحب من مثار النقع ودخان البخور وكأن الشرر المتطاير من المشاعل ومن نيران المواعد نجوم متساقطة أو شهب متهاوية وإذا ما انتهت هذه الجموع إلى ساحة الحفل انتظمت حلقات يتوسطها الرفاعيون يعرضون مغامراتهم فيتطوق بعضهم أطواقاً من الحيات الضخمة يداعبونها ويروضونها على أنواع من الرقص على نغمات المزمار أو تقاسيم الناي أو يخطون لها في الأرض دوائر يجلسونها فيها فتزحف في محيطها كيف شاءت دون أن تجرؤ على تخطي خطوطها وقد يعملون أسنانهم في حسومها أعضاء ونهشاً وما تحاول أن تدفع عن نفسها أذى ولا شراً وبعد غيرهم إلى المناجل المصهورة يلعقونها وإلى الجمار الملتبئة يأكلونها وإلى قطع الزجاج يعضونها وإلى المسامير يتلعونها

بل لقد يدخل أحدهم السيف الطويل في فيه ويغيبه في جوفه وما يمسهم من كل ذلك سوء أو يصيبهم أذى .

وفي بعض الحقائق نرى حواة قد وضعوا أوعية مملأى بالماء واطلقوا حولها الثعابين فتهرع إليها حتى إذا وردت الماء واستقت تقدم الحواة فشربوا منه ثم راحوا يسقون النظارة زاعمين أن كل من شرب منه شريرة كانت أماناً له من كل زاحفة .

وفي حلقات أخرى تراهم يطلقون أسراباً من تلك الحيات ويندونها فتأثى إليهم طائفة أو يأمرونها بالوقوف وهي زاحفة وهم يرددون صيغاً غريبة من العزائم . فتجمد في مكانها أو يلقون حبالهم وعصيهم فيسحروا أعين الناس فيخالوها حيات تسعى وهم في كل ذلك ينادون (يا رفاعى مددك) .

ويزعم هؤلاء الرفاعيون أن كل ما يأتونه من تلك العجائب مصدره البركة المستمدة من شيخهم الأكبر . ولو صح ذلك لما ذهب بين آن وآن عدد منهم ضحايا لدغ الأفاعى . ولكن لهم من تلك البركة مناعة تقيهم وهم أقرب الناس من شيخهم . وأغلب الظن أنهم درعوا على المهارة بخفة الحركة أو أوتوا شيئاً من قوة

الايحاء وإنما ظهورها للناس في مظهر الدين لأن ذلك أروج
ابضاعتهم وأزكى لهم عند العامة والبسطاء .

ولقد تركنا الشيخ أبا مكارم في طريقه إلى مهرجان وفي
جعبته « ووطو » وكان من سوء حظه أنه بعد أن وصل إلى
الساحة الكبرى وكانت قريبة من النيل وتوسط إحدى الحفقت
يعرض الأعمية اخرج « ووطو » من قرايه وعرضه في بعض
المنابر ثم له حول عنقه وعضه عضه ألم له « ووطو » فجزاه عليه
عضة مثلها فخر الشيخ المسكين مغشياً عليه غشية لم يفق منها ولم
يدفع عنه لموت رقى لراقين ولا تعويذ لمعوذين ووجم الناس
لهذه له جأة المؤنة وانسل له « ووطو » من تحت أرجلهم فلما ثبوا
إلى نفوسهم راحوا يبحثون عن ذلك نعبان لا ينجون وجروا في
أثره وانكبهم لم يدركوه لم وتد شرف انهر قفقر فيه فجعوا
برجمونه بالخصى فقص في له حتى وصل إلى القمع .

زل ، وطر « إلى قع نيل فإذا هو في بيثة لا تشاكلها
يأت ودولة تتصل أمام دولات ووجد من حيوان له وسمكه
صنفاً لم يشهد ضريباً وثني نمسه بين حياؤها غريباً فلب
في نمسه ديب من الفرع وادلت له الأسماء جرعاً بجزع فمن شأنها

أن تفرغ لرؤية كل غريب وانكش « وطو » يفكر فيما وقع فيه
 فبصر محوت أملس يقال له « الرعاد » في لونه صفرة قائمة يشوبها
 بياض وتوشها بقع يغلب عليها السواد إذا دنت منه الأسماك
 ضربها بذنبه فلفظت كل ما في جوفها فيسرع إليه فيلتهمه ورأى
 أحرصها على البعد عنه (البلطيات) لأنها تحفظ فقسها في تجاويرف
 فيها فتبتعد خشية أن يصيبها ما يصيب غيرها ويكون متافه
 لصغارها . ورأى « بوطو » فيما رأى الجريس وهو نوع من
 الأسماك يشبه الثعابين بعض الشبه حتى اشتهر بين الناس باسم
 ثعبان السمك وظلموه فاعتقدوا بأن في رأسه غدة سامة
 كحكة الأرض فعمدوا إلى قطع رأسه قبل أكله وهو من
 كل ذلك براء . . وظن « بوطو » أنه من فصيلته لولا
 أن رأى فيه صبراً على المكث تحت الماء بفضل خياشيمه التي
 يتنفس منها .

وراحت « القراميط » من حوله بلونها الرمادي الداكن
 تلعب وترقص ويناجي الذكور منها أنثاه فكأنها في عيد من
 الأعياد . ثم يشتبكان في تراوج قد يطول ، وبعد وقت غير

قصير تضع الأنثا بيضها المخصب في الطين خوفاً عليه من أن يتهمه عدوها من الأسماك الأخرى . كما راحت ذكور سمك (البنى) . وأنثاه تلقى حيواناتها المنوية وبويضاتها في الماء وتتركها منشئة القدر .

وضاق « بوطو » بهذه البيئة وأحس الصيق في أنفاسه نفذ الهواء من رئته فظفا على سطح الماء فرأى سمك « البطحيش » الدقيق الذي يلد صغاره يتهم يرقات الداموس إتهاماً . ولح السمك « السماك » الأبيض يحوم فوق سطح الماء في تديل وتراقص معجباً بالألوان البديعة التي وشت الطبيعة بها ريشه الجميد فكأنه رسمت عليه زهور القول . ويهوى على سطح الماء فينتط سميكة البطحيش الصغير . . . وقد اتخذ السمك عششه من الجروف الموجودة على لشاطئ . فيضع فيها بيصه . ولا يحزنه أن يداهم عشه تعبان « العارغة »^(١) وهو اتعبن اوحيد في مصر آكل البيض . ولون هذا الثعبان الغريد زيتوني ورمدي وعليه صفوف من بقع غراء معتمة وقد تالشي كل هذه البقع .

أما البضن فأصفر وله نقط غبراء وهذا التعبان وديع لا يعرض
لأن أسنانه غير أثرية وغير مدببة وهو عظيم الشبه بأفريقية السامة
في لونها وفي الصوت الذي تحدثه الحراشيف عند احتكاكها
ولذلك يصعب على الكثير التمييز بينهما:

وسبح « بوطو » إلى الصفة الأخرى من الهر فوق في صحراء
مجدبة سادها السكون والوحشة فلا يسمع فيها إلا همس النسيم
وكان القمر يرسل ضياءه على رقعة الرمال التي سردتها الرياح
فبدت كلبجة الماء . وخرجت القرع والمقرنات من الرمال فأبرقت
بانعكاس ضوء القمر على جلودها ، ودبت الحياة في ذلك القفر
نوات ، وجدت كل دابة في طلب رزقها فنلاق الثمراء . تقابل
الأعداء . واشتبكت ورائة ومقرنة نعضت عليها بأسنانها وجعلت
تضرب بها الأرض وراحت تدفع عن نفسها فالتفت حول عنقها
وجدت في خنقها ثم انجأت المعركة عن الخصمين معاً صريعين .
وانفرد أرقم^(١) أحمر بحجة غريبة فأوسعته وخرأ بأنيابها وجداً
هو في مداورتها حتى تمكن من القبض على عنقه . وما زال بها

حتى قضت نحبها فلما سكنت حركتها التهمها . . . وظهر أبو منتن
 بشعبان قتلته وهم بأكله فرأى (فنكاً^(١)) يدايف إليه فاستلقى
 على الأرض وتماوت وبعث بريح شديدة الفتن انتشرت في
 الهواء فلوئثته وتذذى به الفئك فأنقلب على عقبه وقد
 خاب أمه . . .

برم « بوطو » بهذه البيئة الجديدة وأوجس في نفسه خيفة
 فأجمع أمره على أن يعود أدراجه ورأى على ثره سريراً من
 الأراقم تطارده فجذّ في الهرب ولم ينج منه إلا التجاؤء إلى الماء
 وبينما هو ساج في النيل إذ صدف فنكاً مشحوناً فتعق به
 وكمن بين ساعه وصادف في جوفه بعض الجرذان فقتل به . . .
 وأفل القمر فقفز رقاعة باب السمير إلى الليلة الثانية . . .

عشش الترجان

ولما أشرق القمر في الليلة السادسة اتخذ رفاعة مكانه من القوم ليصل ما انقطع من حديثه وقال : —

التي الفلك المشحون مراسيه على شط النيل في (بولاق) على كذب من « عشش الترجان » وشرع النوتية يفرغون حمولة فلكهم إلى أن جاء دور (بلاليس) العسل فتراجع الحمالون وقد امتنعت وجوههم واضطربت قلوبهم وجعل كل منهم يجري من مكان إلى مكان منقبا عن عصا صائحاً « الثعبان . الثعبان » ولكن الثعبان كان أحرص على حياته من أن ينتظر الموت ما كنأ فتركهم في مرجهم وانسل إلى البر ونزل في أرض قوم لو اطلمت عليهم لوليت منهم فراراً ولمنثت منهم رعباً . تطلع الشمس فيهم على رؤوس مشعثة وعميون غائرة صفرها الجوع ووجوه شاحبة وأجسام مهزولة هدها السقم ونفوس خائرة أنهكها التخدير وعقول

فأثرة صرفها الجهل والضعف عن السعى للعيش إلا من طرق
الإحرام وسلكوا في تدمير إجرامهم كل سبيل وفتقوا فيه كل حيلة
حتى استنصروا القردة وعلموها « النشل » وروضوا الحيت ودرروا
الجداء والكلاب والجرذان على الأعيب يبتزون بها أموال
الناس يصرفون نهرهم في التسول والسلب فإذا أرخى الليل
ستوره وشر الويته ضفقت هذه الأفاعى البشرية تعيث في الأرض
فسدا فتراهم عصبات يتناحرون على اقتسام الغنم ويتبرون في
اعداد قراطيس الخدر للتجار أو يتشاحنون على اقتدص فرائس
الأعراض وقد يجرمهم - يشجر بينهم - إلى أعمال الخناجر والمراوات
فتبتأ أعضاء وتراق دماء وقد لا تقع عليهم عيون الولاة ولا أيدي
القضاء .

وإذا ولجت وكرهم أو عششهم فوجئت بما يؤذى منعص
من تنن الريح ويضنى الرثات من فساد الهواء ويقذى العيون
من قدروها نك ما يقع عليه بصرك من أجسام عجاف كأعشب
الصحراء ملقة على فرش من المليف والبردى أو على حشيش من
الهشيم تلفها أردية بالية لا يبين لونها مما علق بها من أوساخ وأقذار

ومن عجيب أمر هذه الدور ان أرخص سلعها الأرواح والأعراض
وأغلى نزلاتها الأوبئة والأمراض .

ولو اطلعت على ضمير ساكنيها وكشفوا لك عن دخيلة أنفسهم
لراعتك ما انطوت عليه جوارحهم من ثورة على القدر الذي شاء لهم
حياة البهم وسخط على المجتمع الذي لفظهم فأشقام ليحنو على
الأثرياء الناعمين بثرواتهم لاهين عن شقاوة وبؤس الفقراء ممن
حولهم يضمنون عليهم ، وهم الله من فضل فينتشلوهم من حمأة
الجهل وال فقر التي تردوا فيها .. ولو فعلوا لأتقذوا هؤلاء التمساء
الذين قضت عليهم تنشئتهم وتربيتهم وجهلهم بأن يكونوا أعداء
الفضيلة وخلصوا المجتمع من شرهم وأذاهم وانتقامهم من الجماعة
التي تجاهلتهم .

ولئن كان هذا الحى أو هذه المباءة وصمة في جبين القاهرة فان
في بعض بلاد الغرب التي سبقتنا كما يزعمون بأشواط في طريق
المدنية مباءات شر منها في الواقع . هناك « النورد » في برلين
و « مونمارتر » في باريس

ونعود الآن إلى « بوطو » العرييد فقد ظل يزحف تحت
جدران الأكواخ يفكر في الطعام ويحتال للمأوى حتى وقع على

كوخ قراد ففزعت لمرآة القروء في مرابطها وتعالث صيحاتها
فقبل أهل البيت فرأوا تعبنا ضحنا لا عهد لهم بمثله ففزعوا إلى
عميد حواتهم الشيخ جاد وهو رجل عات جبار على الرغم من
ضآلة جسمه وقلة وزنه يشبه في كثير الشيخ (عمران) ففيه عيناها
السوداوان البراقتان وفيه ظهرة هذوئه وسكونه غير أنه لا يمثاله
في طيبة قلبه وتنوع نفسه .. فعجل الشيخ جاد إلى « بوطو »
وراح يتعرف آثاره حتى أدركه وهو يحاول الهرب فوضع عصاه
الصغيرة على عنقه وحمله في قرابة ايضمه إلى مجموعته من الزواحف
التي غصت بها داره رائتي كانت تدر عليه رزقا لا يذله أمثاله إذ
أتاحت للشيخ جاد سعة حياته الاتصال بدور العلم وهواة البحث
في شئون الزواحف فعرف مغالاتهم باندر منه فكان يجلس
عنده بعض الأنواع غير المعروفة ثم يبيعهم إياها فرادى وفي
فترات متباعدة يلتقاضى ثمنها دنانير عديدة . فيسر الشيخ من
هذه الطريق وأثرى وأصبحت له بين (العشش) يموت عدة
واتسع سلطانه في الخى لما عرف من اتصنه بالعضاء وذوى النفوذ
وأصبح مرهوب الجانب والبأس فكان يرهق مستأجرى دوره
إذ تباطأوا في آدية الأجور حتى ولو أدى بهم الأمر إلى السرقة .

وتوافرت للرجل زينة المال ولكن حرمه الله زينة البنين فلم تنجب له زوجاته العديدات ولدا فكان يستبدل بين عام وعام زوجا بزواج دون أن يمن الله عليه بولد أو يبقى له من بناته على غير أبنته « عبلة » وكثر استبداله للمؤنثات حتى كانت المرأة التاسعة ولم تكن أسعد حظاً من سابقاتها فوضعت له بنتاً . وأيقنت المرأة بأن مصيرها إلى الطلاق والحرمان من ثروة زوجها فأجمعت أمرها على الخلاص من الشيخ قبل أن يتخلص هو منها وكان الشيخ جاد قد جافاها وهجر مضجعها . فوسوس لها شيطانها في هزيع من الليل فحملت إلى مخدع الشيخ وهو نائم قراباً من قرب الحيات الفتاة وفتحته في المخدع وانسلت . فخرجت الحيات منه وتفرقت في الحجرة وصادفت حية ذراع الشيخ فلدغته . . وكانت وحيدته « عبلة » نائمة في حجرة مجاورة فنهتها صبيحة أبيها من حلم مروع أفرعها فهروأت إلى مخدعه فأتمت الرؤيا قد تحققت وكان تأويلها أروع منها إذ رأت أباهما يعاني سكرات الموت وقد انعقد لسانه و برق بصره و شلت أعضاؤه وأبصرت بالأفاعى طليقة في نواحي الحجرة

فبادرت إلى جمعها وحبسها ثم عادت إلى الشيخ المحتضر حتى صعدت روحه إلى بارئها .

وكانت عبلة فتاة عربية الخمايل مليحة الوجه هيفاء القامة هفافة الروح حلوة الحديث صافية الذهن حادة الذكاء ولكن نشأتها بين أبالسة (العشش) أواعتها بالخاطرة وحفزتها إلى مغامرات أخطر من مساكنة الحيات ومصاحبته فأفتنت في تهريب المخدرات وبرعت فكانت لها مع رجال الأمن جولات خرجت منها فائزة . .

وبعد موت الشيخ جاد نشطت عبلة إلى القيام بعمل أيها فطلبت إليها كلية الطب أن تبيعها بعض الثعابين السامة لتجرى على سمها التجاريب فكان فيما باعته إليها « بوضو » الجوال الذي لا يكاد يستقر به المقام في معمل الكنية حتى هرب مرة أخرى واتخذ سبيله بين الحجرات والعنبر فهاج النازلون به واستعان أولو الأمر فيها باخصائي من حدائق الحيوان فاعتقله ونقله إلى الحديقة . وأفل القمر فأقفل رفاعة باب السمر إلى الليلة التالية . . .

يوم الضحايا

ولما أشرق القمر في الليلة السابعة اتخذ رفاعة مكانه من القوم ليصل ما انقطع من حديثه قال : —

تسلم مكتب الحديقة الثعبان «يوطو» وأخذه حارس «المنطقة الحارة» وهو اسم يطلق على المكان الذي تحفظ فيه الثعابين والسلاحف والتماسيح والورل والحرايى . ومر الحارس بالثعبان على بركة التماسيح وكان ساكنها راقداً على حافة البركة المسورة بقضبان من الحديد يصطلى الشمس وقد فغرفاه كأنه فى انتظار صاحبه «القطقاط» طائر التماسيح وصديقه الذى يلزمه دائماً فيهبطين فكيه ويلتقط من بين أسنانه الهوام والديدان والتمساح هادىء مطمئن حريص على أن لا يطبق فمه الهائل على صديقه الصغير أو يناله بسوء وهو حارسه الوفى حتى إذا رأى عدواً أو أحس خطراً يهدد التماسيح صفق بجناحيه منذراً فينسأب التماسيح إلى الماء هرباً ..

وقديماً عبد لمصريون التماسح وكرموه وحفظوه واتخذوا منه
 إلهاً اشروق الشمس على الرغم مما عرف عن وحشيته وافتراسه
 للإنسان . والتمساح ذو دهاء ومكر شديد قد قيل إنه يغشى
 الأمكنة التي تتردد عليها الفلاحات لئلاّ أن الجرار بما يحتاج
 إليه من الماء فيعمد التماسح إلى طلي ذنبه بالطين اللزج من قاع
 النيل ثم يصعد إلى الشاطئ فيتمرغ عليه ثم يعود فيمكن قريباً
 فإذا ساق سوء الحظ إحدى الفلاحات إلى هذا المكان انزمت
 قدماً فيتلفها التماسح فريسة سائغة

ومن المعروف أن الورلة الشائبة التي كادت تنقرض من مصر
 تتغذى ببيض التماسيح وصغارها .

ويقال إن النمس ألد أعداء التماسح وأن أحب شيء إليه هو
 هذه الزواحف العظيمة . ومن الخرافات الشائعة أن لمس كثيراً
 ما يباغت التماسح وهو فاغر فاه فيغافله ويدخل فيه وينفذ إلى
 أحشائه يقطعها ويلتهمها ثم يمزق جلد التماسح ويخرج من جوفه .
 ومر «نوطو» فيا مر مع الحارس محظائر السلاحف وقد فأت
 بما تحمل على ظهورها من عاب عظيمة فراحت تزحف بها
 في تناقل وكسل وقد برمت وضقت بحملها الذي قدر عليها أن

تحمله عمراً طويلاً قد يزيد على الثلاثمائة عام تقضيها في حياة هادئة لا تتغير ولا تبدل . وإلى جانب هذه الحظائر أقيمت بيوت صغيرة تضم بين جدرانها الضباب والورل والأبراص والسحالي . وعلى باب « بيت الثعابين » وضع صندوق زجاجي ثبتت به أغصان شجر جافة لصقت بإحداها زاحفة يعرفها الناس باسم « الحرباء » وفي طباع هذه الحرباء من الطريف والغريب ما يسترعى النظر ويدعو إلى التسلية . فالناظر إليها يرى عينين لا علاقة لإحداهما بالأخرى تدوران في محجريهما في كل الانجهاات فتتعقب الفريسة بعين وتنطلق إلى هدف آخر بالثانية كأن تستطلع بها الطريق أو تراقب العدو . وتظل ساكنة على هذه الحال حتى تستقر عينها على حشرة من الحشرات التي تتغذى عليها كذبابة أو غيرها وعندئذ وبأسرع من لمح البصر يندفع لسانها الطويل ممتداً إلى موضع الحشرة ليعود بها إلى فمها فتبتلعها والمعروف عن الحرباء أنها تتلون تبعاً للون البيئة التي توجد فيها فتكون خضراء مثلاً بين الشجر أو صفراء في الرمال وهكذا حتى راحت مثلاً للتلون . والواقع أن هذا الرأي فيه من الصواب والخطأ جميعاً . حقيقة أن الحرباء كثيرة التلون ولكن تلونها

هذا لا يرجع إلى البيئة ولكن إلى عوامل طبيعية ومؤثرات أخرى مختلفة كاضواء الحرارة والفرع والاستفزاز والجوع والعطش وغير ذلك مما يقع تحت تأثير الأعصاب على المادة الملونة الموجودة بخلايا الجلد .

دخل الحارس ببوطو إلى « بيت الثعابين » حيث وضعه مع أضرابه من النواشر في صندوق زجاجى كبير و « بيت الثعابين » فى هذه الحديقة التاريخية خليق بالمشاهدة والاهتمام . . فإذا ولجته زائر أخذته الروعة بتلك الثعابين الحبيسة وقد تتملكه الرهبة إذا تذكر أنه أمام تلك الزاحفة العريقة التى كانت فى يوم ما معبودة القدماء تقام لها الهياكل وتبنى من أجلها المعابد . . فها هو ذا الناشر « أوريس » الثعبان المقدس كما كان يسميه قدماء المصريين . . وها هى ذى « المقرنة » معبودة « طيبة » كما ذكر « هيرودوت » ثم ها هى ذى « الأصلة » إلهة النصر عند زنوج أفريقية . . .

اكتظ المكان بشقى أنواع الثعابين وقد تهيأت لكل نوع البيئة التى كان يعيش فيها حين كان حرّاً طليقاً . . ويرى الزائر الثعابين هادئة ساكنة فى أماكنها قد اتخذت وضعاً معيناً تظل

عليه الساعات الطوال لا تغيره . . . يرى الأرقم الأحمر رابضاً شاخصاً . . . و « الأزود »^(١) والأرقم البيتى متسلقين غصناً .. ويلمح « المقرنة » دفيئة فى الرمال لا يبدو منها غير رأسها المنطرح و « الغربية » هادئة فوق حجر تصطبلى الشمس . . . ويبصر الناشر كامناً ساكناً فإذا أحس حركة بجانبه هاج وثار . وينظر إلى « حنش »^(٢) الماء « فيجده دائماً جاداً فى قطع جدولته ذهاباً وأوبة . بينما رقدت « الأصلة » فى قاع بركتها . . وقد يغادر الزائر « بيت الثعابين » دون أن يظفر برؤية البخاخ أو البرجيل .

وصادف أن كان حضور « يوطو » إلى « بيت الثعابين » فى يوم الثلاثاء أو يوم الضحايا وهو اليوم المخصص من كل أسبوع لتقديم الطعام لها فى مساء بعد انتهاء الزيارة .

فلما انصرف الزائرون وأقفر المكان هرع الحراس إلى احدى الحجر فى هذا البيت حيث مجنت الضحايا من الفيران والسحالى والحمام والماعز وأخذوا يوزعونها على الثعابين . . حسبما يستسيغه كل منها . . فهناك فى صدر المكان حيث محبس « الأصلة »

الهائلة يروح الحارس يدفع إليها بأفراد الحمام فيعرف حولها في لهو وعبث وغباء . . . فإذا ما شعرت الأصلة برفيف أجنحتها تحركت بدافع الجوع وحامت في نحيبها البريئة بعينين شاخصتين وفتحت فاهها وما يزال الحمام في لهو وعبثه يقرب ويتعد ويعلو ويهبط حتى تقع حمامة منه على فم الأصلة فتطبقه عليها في هدوء وتغيبها في جوفها ثم تعود فتفتح فاهها لتستقبل ضحية أخرى . . وهكذا تتوالى الضحايا واحدة بعد أخرى حتى يستقر في جوفها حوالي أربعة عشر زوجاً من الحمام . . .

وفي محبس ملاصق تقيم الأعلة الهذية فيقدم لها حرسها جدياً صغيراً فتحقق فيه ملياً فيجمد المسكين في مكانه من شدة الرعب والهلع . . . ولكن بدلاً من أن تهتم بهصر عوده وخفته توطئة لبلعه تهمله ولا تقر به . . . لا رحمة به منها وشفقة عليه وإنما زهداً في الطعام إذ كانت على وشك الانسلاخ . . . وأتخذ الجدى مؤقتاً إلى أن يمينا حينه في أسبوع آت . . .

وفي أحد أركان البيت العتيد أنشبت « المقرنة » أنيابها في فُر صغير — فما لبث أن مات بسمها فابتلعه من رأسه إلى أن استقر في معدتها فأخذت في هضمه حتى موعد الوجبة التالية . . .

وهكذا فعلت في ركن مقابل « الحية القراء » بسحاليها . . .
 وثمة ثعبان آخر هو « الفارغة » يتغذى بالبيض يقدمه له
 حارسه فيلتهمه دون أن تكسره أسنانه الأثرية . . فما إن تستقر
 البيضة في مريثه حتى يضيق عليها من أسفل وتتقلص العضلات
 فتعرض البيضة للكسر بالاصطدام بما يبرز من فقرات الظهر
 من تنوء وتسيل محتويات البيضة في المعدة . أما القشر فيلفظه
 لعدم حاجته إليه . .

ثم ألقى الحارس ببعض الفيراف في بيت النواشر النهمة
 فتجمعت عليها تعمل فيها أنيابها . . .
 أما نوطو فكان لخدانة عهده بالأسر محتاجاً ثائراً يسعى بين
 جنبات المجلس وله يجد منفذاً . ولم يلق بالآ إلى الجرزان التي
 كانت تهزول حوله قلقة مذعورة . . .
 وأفل القمر فأقبل رفاهه باب السمر إلى الليلة التالية .

نايالا المجنونة

ولما أشرق الفجر في الليلة الثامنة أخذ رفاهه مكانه من القوم
ليصل ما انقطع من حديثه قال :

ظل بوطو بضعة أسابيع في معقله الزجاجي في حدائق الحيوان
بالجيزة إلى أن كان يوم مرت فيه بمصر بعثة علمية من أمريكا
الجنوبية وكان من ههما أن تجمع ضروبا من الثعابين من مختلف
الأنواع تنقلها إلى معاهد البرازيل وقد حملت فيها حملته إلى بلادها
مما أهدى إليها من مصر بوطو المعروف .

وهكذا هبط بوطو أرض البرازيل ونزل ضيفا عزيزاً على
(البوتانتان)^(١) أو حزر الثعابين الشهيرة في ضواحي (سانتاوولو)
وهي حدائق غناء فسيحة الأرجاء أنشأها العالم الكبير (فيتال
برازيل) سنة ١٨٩٩ فأسدى بذلك إلى بلاده يداً وطنية خليقة

بأجرل استكرو وُجمل التند. وفي هذه الحدائق الواسعة تجمع أنواع
التعابين من ستنى البقع وقد أعدت لها جزرٌ حيطت بخندق من
ماء رُعد في كل جزيرة قباء له أربع كوى ويفرد لكل نوع
من التعابين جزيرة تعيش طليقة في أرضها وتتقي هجير الصيف
ومطر الشتاء تحت قبورها .

وكذلك أعدت في الحدائق حظائر للخيل التي تحقق بالاسم
لعمل المصل الواقى وهذا المصل يوزع بين جميع الأهالى بالجواز
فقلت نسبة الوفيات بسم الأفاعى منذ ان أنشئت هذه الحدائق
ولجمع الاسم من الأفاعى يمسكها الحراس بعصى خاصة ثم تدلك
الغدد السمية فتزرز سمها ويجمع في أوعية خاصة وهذه العملية
ساقية مجهدة للأفاعى وتكرارها يمسى عايتها — وقد أجريت ابوطو
أكثر من مرة فقصت عليه وطريقت صحيفة مليئة بالمغامرات حافلة
بأحداث ووضيع فى الكحول ممتحف الحديثة ليؤدى للعلم خدمة
بعد موته .

سكت رفاهه هنية ثم عارذ حديثه قال وانعد مرة أخرى إلى
الكلام عن ابرازيل التي زارها صديق الأستاذ موسى والتي
كثيراً ما تحدث عنها أمام تلاميذه فى شيء من الإسهاب . فهذه

البلاد أحق بلاد العالم بأن تسمى وكر الثعابين فهذه الثعابين المرجابية الجميلة وهى سامة وغذاؤها الثعابين وقد مرّن أهل تلك البقاع على صيدها فهم يحملونها ويبيعونها للسباح ويخمون عنهم ما فيها من خطر فيدعون أنها ليست سامة وإما السم فى ثعابين فى جوفها تعض نيابة عنها وفى هذه البلاد سيد الأحراج وهو أطول الثعابين وأضخمها إذ يبلغ طوله أربعة أمتار وهناك غير هذه ذوات الأجراس^(١) وهى أشرس الثعابين وأخبثها وهى أفاعٍ تكونت على أذنانها حلقات قرنية مجوفة كالأجراس متداخلة بعضها فى بعض يحدث احتكاكها رنيناً خاصاً ويرجع بعض العلماء أن صوتها علاقة بالتزاوج ويعتقد بعض الهنود الجر أن هذا الصوت نذير للإنسان فلولاه ولولا ما طبعت عليه من بطء الحركة لأربت ضحاياها وما أكثرها على الملايين. وأنياب هذه الأفاعى بالغة الصلابة مفرطة الطول فلا تجدى فيها كثافة الأرضية بل لا تحول دونها صفاقة الجلود ولدغاتها قتل ذريعة فإن جزءاً من مليون جزء من الجرام من سم هذه الأفاعى يقضى على الحمامة فى ثانية واحدة

على حين أنه لا يقصى عليها في مثل هذه المادة أقل من نصف
 - ليجرام من سم سيد الأحرار التعبد البرازيلي الشهير .
 وتتخذ هذه التماسين وكورها عمدشواطيء البحر وفي الأحرار
 وفي السهول وفي المضارب وحول المنار وتجمع بها الغابات الكثيفة
 التي قلما تصود قدم إنسان لأن الأشجار فيها ملتمة مترصة
 كأبنين سدت نوافذه وكثيراً ما تفقد الحيوانات ذوات الفراء
 أوبارها .

وهذه الغابات ساحة حرب عوان لا تهدأ رحاها بين جميع
 الكائنات الحية ففي طلب الضوء تتناحر الأشجار فيتسامى كل
 جرع بأغصانه إلى عنان السماء كما تعلو التيجان الرؤس لنظير
 من أشعة الشمس بأوفر نصيب . وتظهر نباتات أخرى متسلقة
 تلك الجذوع وترتفع بدورها فوق هذه التيجان لتواجه الضوء
 وترسل غيرها جذورها الهوائية من عل فتتدلى في ثنيات الغاب
 وعلى هذه الألفنان وفي وسط هذا النضال تعيش البيغاء الساحرة
 المنظر العتانة الريش والقردة السريعة الحركات وأضدادها
 كالكل ائتمل والحيوان الكسلان وهناك مقبل الزهرة العصفور
 الجليل الذي لا تكاد العين تفرق بينه وبين الزهرة حين تقع عليها

وسط هذه البيئة تعيش الثعابين وخاصة ذو الجرس الخفيف يبعث
 الرعب في قلوبها وينشر الفزع في نفوسها ويسلط شره عليه
 وعلى كل من دلف إليها فلا يطمئن إلى جواره صيد ولا يكا
 ينجو منه صائد وهناك الخطابون الذين يعملون في قطع أشجار
 الغاب لا يفتأون يعملون واصلين ليلهم بهارهم ليمهدوا الأجزاء
 التي يطهرونها من الشجر ويهيئوها للزراعة حتى إذا ما نجحت
 جهودهم في اخلاء بعض الساحات الصغيرة وظنوا أنهم قادرون
 عليها دهمهم سيل هذه الأفاعى وزحمت عليهم كتائبها تنذرهم
 وتنزل بهم بطشها وتتركم صرعى فلا تعود جذور النباتات تجد
 ما يقف في طريق نموها بعد أن سكنت المعاول فتتشط وتضاعف
 مجهودها وتضم إلى مملكة الغاب بعد أن انتزعت منها وكأز
 الطبيعة هناك أشد من الإنسان بأساً وأطول ناعاً وعلى جنبات
 هذا الغاب قامت قرى يعمرها قبائل من المهاجرين البيض والهنود
 الحمر رأوا وسمعوا كيف عصفت الأفاعى بأمتلهم فمفقوا حين
 تدفع عنهم غوائلها وعمدوا إلى الخنازير فاقتنوها وأكثروا من
 تربيتها فخلصتهم من هذا العدو ولولا هذه الخنازير التي لا تنار
 منها الأفاعى نيلاً لما استقر لأهل القرى قرار ونحلت منهم أرضهم

وذيأرهم ولما سكنها غير الأفاعي من بعدهم وفي جوار الغاب كوخ صغير يروى الرواة عن صاحبتة (المجنونة) قصة تبكى العيون فقد نشأت هذه المسكينة (نايالا) في ذلك الكوخ طفلة فاتنة كأنزهرة نضارة وجمالاً ساذجة كالقطر طهارة وصفاء ونشأ إلى جانبها ابن عمها (تيمياو) ابن زعيم القبيلة الذي بانث فيه مخايل الكرم والشجاعة فنشأ طفلين يمرحان ويلعبان وترعرعا شابين يسحران ويفتنان (نايالا) بوداعتها وجمالها « وتيمياو » ببسالته وإقدامه ونشأت معهما وترعرعت علاقة حب انتهت بزواج وتمت لتيمياو زعامة القبيلة بعد موت أبيه وكان يوم خرج فيه الصيادون إلى الغاب وخرج معهم زعيمهم وما يؤذ دخلوا الغاب وأوغلوا فيه حتى سنع له قطع من الحيوان فراح يطارده وأبعده الطراد عن رفاقه فضل الطريق وشاء له سوء الطالع أن تقع قدمه على واحد من ذوات الأجراس فعضته في ساقه وما إن شعر بها حتى عدا عليها فقتلها وأسرع إلى موضع العضة من ساقه فشقه وجعل يعصر السم منه ثم اتخذ له ضمادة من قميصه ولكن السم كان أسرع من حيلته فسرى في دمه وخارت قواه عرف ذلك حين تحامل على نفسه وهم بالنهوض فخانه عزمه وسقط مغشياً

عليه وكان الصيادون يجدون في ثمره للبحث عنه فعثروا عليه قبل ان يلفظ انفاسه الأخيرة فأنخلعت قلوبهم لما أصاب زعيمهم وهموا بنقله ولكن الدم جعل ينزف من فيه ومن أنفه فدلهم ذلك على أنه في النزح وأوما إليهم في هذه اللحظة الأخيرة أن ادفنوني في ظل هذا الغاب واستحلفهم في نعمة خافتة ألا يعلموا نايالا بمكانه وأن يكتموا عنها أمر وفاته وليكن مبلغ علمهم به حين تسألهم عنه أنه كان يطارد صيداً في الغاب وأنهم بحثوا عنه فلم يهتدوا إليه وحان الحين الرهيب و فرق الزعيم الحية فبكوه جهدهم ودفنوه حيث أمرهم وعادوا دراجهم واقبيتهم (نايالا) فلم يزيدوها على ما أوصاهم به وتطيرت بهذا النبأ فضل عنها صواها واختلط عقابها وفرت إلى كوخها كالظبية النافرة وظلت فيه حبيسة لا تهرحه إلا مرة في كل مساء إذا عاد الرعاة وأن أوان عودة الصيادين فتنظروهم على رأس الطريق تتوسم وجوههم وتسمع أصواتهم لعلها تظفر بتمياو المحبوب بينهم حتى إذا أسفرت لها الحقيقة ولم يظهر لها تمياو وغلبها اليأس انقلبت إلى كوخها وكأنها تردد فيما بينها وبين نفسها .

عد إلى يا تمياو فقد نفذ الصبر

عد إلى ولا تبطىء فانى أنتظر
 وإلى أن يدب بياض الشيب فى شعرى وقد دب
 ويسلبه سواد لونه الفاحم وقد سلب
 وإلى أن تكرر السنوات واحدة إثر أخرى وتمر
 وإلى أن يذوى عودى وتبقى زهرة العمر
 سأظل أنتظرك يا حبيبى . سأظل أنتظرك يا من أحببته
 من أعماق قلبى

سأظل أنتظر وأنتظر وأنتظر ؟ ؟

وسكت رفاعه وخيم على القوم صمت حزين حتى خرجت
 بهم وردة عن صمتهم سائلة : هلا أخبرتنا يارفاعه بما آل إليه حال
 صديقك موسى صاحب الفضل فى هذا الحديث الشائق عن
 الثعابين ؟ .. فأطرق رفاعه هنيهة ثم رفع رأسه مثقلا وهو يقول :
 لقد أشفقت على نفسى وعليكم من ذكر بما انتهى إليه أمر صديق
 العالم . ولكن ما دمت قد ذكرتني بما نعمدت إغفاله فعلى رسلك
 ياوردة . . وإليكم نبؤه :

ظل الدكتور موسى يقوم بعمله الحكومى الذى أسند إليه خير
 قيام ، لا تفتر همته ولا تنهن أمانته لعمله الذى أحبه من قلبه

وشغف به شغفاً عظيماً ، فوهب له كل حياته حتى نسي ما عنده من أمور الدنيا . . . وكان هو راضياً عن نفسه ، راضياً عن عمله فرضى عنه رؤساؤه وأولوه ما شاء من عبارات التقدير ، وأغدقوا عليه ما شاء من عبارات الثناء والمدح . . . وكان هذا كل نصيبه وكل جزائه . . . ولم يفكر هو في غير هذا النصيب ، وفي خير من هذا الجزاء . . .

واتصل بعلماء الشرق والغرب ، واتصلوا هم به ، فقدروا علمه وشادوا بفضل ، فذاع اسمه في الشرق ، ونبه ذكره في الغرب ولكن قل من سمع به في بلده ؟ ..

وانقضت سنوات وسنوات ، وهو في نفس عمله ، وفي نفس درجته . . . وماذا يعنيه من ذلك ما دام هو بين ثعابينه وحياته الحبيبة إلى نفسه ؟ . . . وجاءه البشير يوماً أن أبشريا موسى فقد ذكرك حكومتك بعد نسيان ، وجاءتك الترقية تسعى بعد طول هجران . . . وارتسمت علامات الاستفهام على شفتي موسى وعلى وجهه جميعاً : كيف . . . ولم ؟ ؟ فأنبأوه أن الحكومة قد أدركت أخيراً أن بعضاً من موظفيها يبقون أمداً طويلاً في درجاتهم لا تذكركم بترقية إلى درجة أعلا ، فأشفقت على هؤلاء المهملين

فست لهم قانوناً ينصفهم بعد غبن سمته « قانون المنسيين » و.
 كان من بين هؤلاء المنسيين المهملين فسيفيد من هذا القانون فيرف
 كيف . . ؟ أ كان إذن منسياً من حكومته رغم ما بدأ
 من جهد في فنه وعلمه ؟ وعلام إذن كان ثناء رؤسائه وتقدير
 زملائه ؟ .. أتنساه حكومته ويهمله بلده وهو الذي عرف الأجانب
 قدره فذكروه واعترفوا بفضله . . ؟ لا . . لا يمكن أن يكون
 هذا حقاً وصدقاً . . إنه حقيقة لم يفكر في ترقية أو جزاء مادة
 اكتفاء منه بحسن تقدير الأمة له وذكرها لشأنه . . . أما أ
 يكون منسياً منها فهذا ما لا يفهمه ! . . ولكنه فهم أخيراً .
 وأدرك أنه من زمرة المنسيين الذين لا يشعر بهم أولياؤ
 ولا يذكرونهم ! .

سخط موسى على قومه . . وثار على عمله فعافته نفسه وصدق
 عنه . . ولم العمل . . وفيه الجهد ؟ . . أليعلى من ذكر بلده و
 نسيه . . وليرفع من شأنه في العلم وقد سخر من علمه ؟ . . ولك
 كيف يرضى هوايته وشغفه بشعائنه إذا هو ترك عمله ؟ . . وانتا
 تفكير وذهول عميق . وأخيراً وجد الحل الذي ارتضاه واطمأن
 إليه نفسه الخيري . . سيسعى هو إلى حياته وثعابينه الحبيبة .

هناك في الصحراء . . بين الرمال . . بعيداً عن القوم الجاحدين .

وانتهى رفاعه من حديثه ولما يأفل القمر فدعا عمه وردة إلى
جولة أخيرة بين خرائب تل العارنة فسار الثلاثة تحت ضوء القمر
الباهت حتى أتوا قصر الملك أخناتون فوقفوا أمام تلك العظمة
البائدة وقد سادهم صمت عميق قطعه رفاعه بسر ما وعيه من
تاريخ البطل العظيم (أخناتون) الصالح الذي أحب السلم وكره
الحرب . . وشجع على الفنون وجعلها ممثلة للحقائق وليست لخيال
كاذب أو رمزاً لأراجيف باطلة فجاءت الصور والتماثيل في عصره
غاية في البساطة وصدق الدلالة . مرسومة بحالتها الطبيعية الوقتية
فالكلب عاو والطير محلق في الجو والثور الوحشى عائم في المستنقعات
مما كان يتمشى مع عقيدة أخناتون في حقيقة الطبيعة وصوابها و
يستثنى من ذلك التغيير أخناتون نفسه فقد رسم جلالاته على الآثار
خالياً من الكلفة الفرعونية القديمة محافظاً على حالته الطبيعية
الحقيقية . . وذكر رفاعه ما كان عليه أخناتون من حب الأسرة
فحث على الزواج وكان خير قدوة في ذلك لرعيته فوهب أسرته
بعض وقته ينعم في بيته من زوجته وأولاده ويخرج وإياهم للنزهة

ويحسو عليهم ويوايهم من حبه وعطفه ما لمسه في صورته . .
وعاش روعة برهيقه وقتاً في ذكريات ذلك الزمن السحيق
ثم أفس القمر قانتوا إلى خيمهم . . ولما أفسحوا ارتحلوا إلى بلادهم
ورفت وردة إلى روعة فكان كلما أشرق القمر أشرق وجه
وردة بانسامة حلوة وهي تقول لزوحها :
« أما حدثنا يا رفاعة عن ثعابينك . . »

